سلسلة التاريخ الليبى

وثائق عن
نهاية العهد القرمانلي

قدمها في الايطالية
اسماعيل كمالي

عربها وعلق عليها
محمد مصطفى بازامه

دار لبنان
للطباعة والنشر

سلسلة التاريخ الليبي

وثائق عن
نهاية العهد القرمانلي

قدمها في الايطالية
اسماعيل كمالي

عربها وعلق عليها
محمد مصطفى بازامه

دار لبنان
للطباعة والنشر
بيروت - ص.ب ٥٦٢٠ - هاتف ٢٩٣٠٤٣

مقدّمة المعرّب

هذا الكتاب الذي أقدمه اليوم ، لقراء العربية ضمن « سلسلة التاريخ الليبي » إنما هو ترجمة لمقال كتب منذ خمس وثلاثين سنة في اللغة الإيطالية من أحد أبناء ليبيا الذين اهتموا بماضيها وحققوه ؛ وقد نشر بالعدد الأول من السنة الرابعة (يناير ١٩٣٠) من صفحة ١ إلى صفحة ٢٤ ، وبالعدد الثاني — الثالث من نفس السنة (مارس) من صفحة ١٧٨ حتى صفحة ٢١٦ من مجلة المستعمرات الايطالية « Rivista Delle Colonie Italiane » .

والدولة القرمانلية أسرة تركية الأصل ، ليبية النشأة والموطن ، حكمت ليبيا فيما بين سنتي ١٧١١ و ١٨٣٥ حكماً ذاتياً مستقلاً عن الآستانة والباب العالي ، اللهم إلا تلك السيادة الإسمية ذات الطابع السياسي الديني الذي يبدأ وينتهي بفرمان تولية يصدره السلطان .

وهذا المقال كما سيبدو لقارئه في ترجمته ، مقال قيم جداً ، تناول فيه كاتبه فترة من تاريخ هذه الأسرة هامة لأنها تكوّن عهد انهيار هذا الحكم القرمانلي للبلاد . وقد كان تناوله لحوادث هذه الفترة في دقة وتفصيل قد لا يحتاجان إلى مزيد من البحث أو الاستقصاء ؛ لذلك اكتفيت بتقديمه في ترجمته العربية ضمن هذه السلسلة التي قدمتُ لك منها في السنة الماضية كتابي « بداية المأساة » ودون أن أضيف إليه في أصله أو أتصرف فيه بغير ما تقتضيه الترجمة من تأخير أو تقديم في بعض العبارات حتى يسلس

اساوب وتتخذ الجملة فيه طابع الأسلوب العربي .

على أن هناك بعض تعليقات وتحقيقات رأيت إضافتها إما للشرح أو
ذكر جزئيات من تفاصيل تهم الباحث المدقق ويستغني عنها المطلع العادي ،
وقد حرصت على وضعها على شكل هوامش أو حواشي على أصل المقال .
وحتى لا تختلط هذه بما وضعه الكاتب في مقاله من هوامش ختمت كل
تعليق لي بعبارة « مترجم » وكل حاشيـة أو هامش في الأصل بلفظة
المؤلف » .

والذي آمله وأرجوه هو أن يصادف لديك — أيها القارىء العربي —
قبولاً في طريقة عرضه للأحداث التي هي بحق إحدى الفترات البالغـة
الأهمية من تاريخنا الطويل .

بنغازي — ديسمبر ١٩٦٥ م.

محمد مصطفى بازامه

كلمة الكاتب (١)

تمتلك أسرة الفقيه حسن الطرابلسية وثائق خطية هامة حول سقوط القرمانليين من بينها رسائل لأحمد القليبي R. Glibi الذي كان يشغل منصب السكرتير العام ليوسف باشا القرمانلي ، وكذلك يوميات لأحداث طرابلس من سنة ١٢٢٣ إلى سنة ١٢٧٥ هجرية (١٨١٩ — ١٨٥٩) .

وفي المتحف التاريخي بطرابلس نسخ من رسائل كتبها في ذلك الوقت كل من قنصلي سردينيا وتوسكانا في طرابلس .

وبالمحكمة الشرعية لمدينة طرابلس سجل للمبايعات والأحكام يتضمن بعض الوثائق الهامة في الموضوع .

وقد رأيت من المناسب الاعتماد في كتابة المقال على هذه المصادر التي

---

(١) والكلمة حول مصادر المقال ، وقد صدر بها ، ولاهميتها اثبتها هنا كما هي . واسماعيل كمالي يقول عنه رودولف ميكاكي في ص٧ من طرابلس الغرب تحت الحكم القرمانلي (ترجم الى العربية) انه الكومانداتور اسماعيل كمالي الملم بتاريخ بلاده اكثر من أي انسان عداه . وقد شغل في وقت ما منصب مدير الاوقاف بطرابلس (مترجم) .

لم يسبق لشرها حتى أقلل من الأخطاء التي نشرت عن مأساة نهاية الأسرة القرمانلية في مثل : « حوليات طرابلس « Annales Tripolitaines » لمؤلفه « Féraud » .

ا . كالي

الفصل الأول

العوامل الأولى للثورة

قدم قنصل بريطانيا بطرابلس وارنجتون[١] في يونيه من سنة ١٨٢٥ إلى يوسف باشا القرمانلي رجلاً انجليزياً يدعى الميجر جوردون لاينج[٢] ، كان قد جاء إلى طرابلس[٣] ليبدأ منها رحلته إلى أواسط إفريقيا عبر طريق

---

(١) لم يستطع البروفسور اتيليو مورى ان يعرف عن الكولونيل فريدريك وارنجتون Frederic Warrinhgton الذي شغل منصب قنصل بريطانيا في طرابلس مدة ٣٥ سنة حيث كانت له سلطات واسعة جعلت اسمه يقترن بجميع الرحلات الاستكشافية في شمال افريقيا اية نبذة عن ترجمة حياته ويقول انه وصل فقط من بارث Barth في كتاب « Wandering Ecc..... » P. 294 الى معرفة انه توفى في باتراس Patrasso سنة ١٨٤٨ م . (مترجم)

(٢) هو Alexander Gordon Ling : اسكتلندي ولد بمدينة ايدمبورج في ٢٧ ديسمبر سنة ١٧٩٣ كان ضابط مستعمرات ممتاز بعد ان شغل بضع سنوات بالهند الغربية نقل الى ساحل الذهب حيث قام هناك بعدد من المهام ذات الطابع الجغرافي ادت الى ابراز صفات الرحالة فيه واكسبته شهرة عظيمة . ومنذ نهاية عام ١٨٢٤ فكر اللورد باثرست Lord Bathurst الذي كان يشتغل آنذاك سكرتيرا بوزارة المستعمرات في ان يكل الى لاينج مهمة القيام برحلة يصل بها من طرابلس عبر الصحراء الكبرى الى منطقة تمبكتو ومجرى نهر النيجر . (مترجم) .

(٣) ترك لاينج بريطانيا في ٥ فبراير ١٨٢٥ في طريقه الى طرابلس ، كما يقول اتيليو موري وهذا يعني انه لم يصل طرابلس في يونيه ١٨٢٥ وانما كان تاريخ تقديمه الى الباشا يوسف القرمانلي وبعد ان اتخذ معظم ترتيبات الرحلة . (مترجم) .

غدامس – توات ، في بعثة استكشاف علمية(١) وطلب القنصل الانجليزي من يوسف باشا تسهيل مهمة سفر هذا الميجر ومساعدته في مهمته(٢) ؛ فقابل الباشا ذلك الرحالة ، وأكرم وفادته ، ووعـــده بأنه سوف لا يكتفي بإعطائه رسائل توصية فقط كما كان يفعل مع غيره ، بل إنه سيوصي به هنـــا وهناك إلى رجال يوثق بهم . ولكن هذا لم يمنع يوسف باشا من تحذير الميجر ، وتحديد ما يستطيع تقديمه من الضمانات فأضاف إلى وعده في صراحة ، وبكل وضوح : انه لا يستطيع أن يتحمل أية مسؤوليـة فيما قد يقع وراء حدود مدينـة غدامس ، لأن سلطانه لا يتعدى حدود تلك المدينة . كما بين للميجر المخاطر والصعاب التي يحتمل تعرضه لها في تلك المرحلة ، ولا سيما من غزاة الهجار « Hoggar » لما اشتهروا به من كراهية شديدة للأجانب عموماً . غير أن الميجر بالرغم من تسليمه برجاحة التحذير الذي أبداه له الباشا ، فقد أصر على عزمـه على القيام بتلك الرحلة .

وفي أغسطس من سنة ١٨٢٥ ترك الميجر طرابلس(٣) برفقـة أجراء

---

(١) كانت رحلات الاستكشاف العلمية التي يقوم بها مغامرون في معظمها كهذه الرحلة بالذات يقف وراءها رجال السلطات الاستعمارية الطامعة في مد زعانفها الى بلدان الشعوب الغافلة الغافلة علهم يجدون في طبيعة ارضها وخيراتها مـا يدفعهم اليها مستغلين . واذا كان العلم قد اكتسب واذا كانت الدول الاستعمارية قد جنت ثروات فان الشعوب الاخرى قد دفعت الثمن غاليا ليحقق مغامرون من شذاذ الافاق تحت ستار البحث العلمي مطامع اولئك الذين لا يمكننا ان نصفهم بغير « مصاصي الدماء » . (مترجم) .

(٢) وبالرغم من ان هذه الاعمال تعد من مهام القنصل الا ان وارنجتون كان قد اصبح صديقا شخصيا للميجر لاينج الذي اصبح بدوره صديق ابنة القنصل اما ماريا Emma Maria وخطيبا لها . (مترجم) .

(٣) يختلف اتيليو موري في كتابه L'Esplora Zione Geografica Della Libia مع كاتب المقال في هذا التاريخ فهو يقول بان لاينج عقد قرانه في ١٤ يوليه على اما ماريا ابنة القنصل وانه غادر طرابلس بعد يومين فقط من ذلك التاريخ أي ١٦ او ١٧ يوليه . (مترجم) .

(عبيد) قام بتوظيفهم على نفقته(١) ، وبعد أن زوده يوسف باشا بعدد من الرسائل إلى أعيان تمبكتو وإلى الشيخ مختار الختناوي ، وهو شخصية مهمة جداً في تلك المناطق . كما كلف تاجراً غدامسياً مشهوراً يدعى الحاج محمد باباني(٢) بمرافقته أثنـاء الرحلة . وقد وصل جميعهم إلى غدامس(٣) في أمان(٤) .

وفي غدامس(٥) انضم إلى القافلة تجار آخرون من البلدة ثم واصلت القافلة استكمال استعداداتها السفر(٦) بدون عائق حتى توات(٧) ، وبالقرب منها ، وأثناء استراحة في عرض الصحراء ، فوجئت القافلة بغتة ، ولأول

---

(١) يقول موری ان القنصل قد اتخذ من الترتيبات ما يجعل رحلة الميجر تتم في سرعة وامان. (مترجم) .

(٢) يقول موری عنه انه قضى من عمره ٢٢ سنة في تمبكتو ، وان له فيها زوجة واولاد، ويقول عنه ايضا انه من الاشخاص الذين يتمتعون بثقة القنصل الكاملة. (مترجم) .

(٣) يقول موری ان باباني تعهد للباشا بايصال الميجر لاينج الى تمبكتو في شهرين ونصف فقط من بدء الرحلة . (مترجم) .

(٤) يقول موری ايضا انه نظرا لعدم الامان في طريق الجبل فقد اتخذوا الى غدامس طريقـا شرقية (طريق بن وليد) دائرين حول الجبل عبر وادي الشاطىء من فزان . (مترجم) .

(٥) يقول موری ان لاينج وصل غدامس في ١٣ سبتمبر ١٨٢٥ . والذي يبدو من كتابات موری هو ان لاينج كـان يكتب من كل مكان يصل اليه الى الجهة التي ارسلته فهو (اي موری) يشير الى ان هناك يوميات لرحلة لاينج عثرعليها بمكتب المستعمرات تنتهي بتركه لعين صالح، ويقول بانها لم تنشر فيما يبدو ومطلقا وان استفاد منها كاتب اخر هـو Sparks Jared في : Memories of :

The life and Franels of John Ledyard from his journal and Corresponce ("2 Uarterly Review' 'xxxvIII, London 1828, P. 100-109).

وفيما يتعلق بكتاباته عن غدامس يقول موری ان ما يجب ذكره منهـا تحديداته المتعلقة بموقعها الاسترونومي Posione Asronomica وملاحظاته المنـاخية التـي اجراها ، والوصف الدقيق الذي اعطاه عن المدينة (غدامس) والتي كانت اول معلومات عنها من مصدر اوروبي حديث. (مترجم)

(٦) يقول موري ان رحلتهم عنها كانت في ٢٧ اكتوبر أي بعد حوالي شهر ونصف من الاقامة . (مترجم)

(٧) يقول موری انه قصد عين صالح وانه وصلها في ٣ ديسمبر (مترجم) .

مرة ، بغارة عليها من غزاة توارق الهجار(1) ، فاضطر رجالها جميعهم إلى خوض معركة دامية معهم انتهت لحسن الحظ بهزيمة المعتدين . غير أن رجال القافلة مع ذلك تكبدوا فيها كثيراً من الخسائر إذ فقد الميجر يده اليمنى(2) — ومات فيما بعد — أربعة من رجالها بينهم شيخ القافلة وأمينها الحاج محمد باباني متأثرين بجراحهم .

ومن هناك واصلت القافلة سفرها متجهة إلى مقر الشيخ مختار الختناوي الذي وجه إليه يوسف باشا إحدى رسائله . وتولى قيادة القافلة الخضر بن الحاج متيان « Mettiten » ابن عم الحاج محمد باباني الذي لاقى حتفه(3) .

وفي توات ، بقي الميجر لاينج في ضيافة الشيخ مختار الختناوي حتى أبل من مرضه والتأمت جراحه(4) . ثم سافر منها قاصداً تمبكتو بعد أن زود برسائل توصية أخرى من الشيخ الختناوي إلى مشايخ وأعيان بلاد تمبكتو فوصلها هي الأخرى دون عائق(5) .

وفي وهذه المدينة أيضاً رحب أعيان تلك البلدة بالميجر لاينج ،

---

(1) ويبدو ان عادة الغارة عند هؤلاء قد تأصلت انذاك فيهم ، وان كانت مناطق نشاطهم في شن الغارات على قوافل التجارة مع السودان وحتى على جماعات المسافرين تتسع مع ضعف السلطات الحاكمة وتضيق مع قوة النفوذ وامتداد السلطان . وسترى غارات هؤلاء التوارق الهجار تمتد الى جند الباشا وداخل اراضيه في ساعات ضعف سلطانه . (مترجم) .

(2) يقول السير هاري جوهنستون في كتابه "La Coloniz. Dell'Africa" ص ٢٦٢ ان الميجر لاينج قد اثخن بالجراح حتى بلغت في جسده ٢٤ طعنة . (مترجم) .

(3) يذكر رودولف ميكاكي في كتابه La Tripolitania E i Caramanli ص ٢٤١ ؛ وكانت قد راجت كنتيجة لذلك ، اشاعة في طرابلس تقول بموت الميجر لاينج ؛ وقد نقل هذا الاشاعة قنصل فرنسا في طرابلس المسيو روسو ، الى حكومته في رسالته اليها بتاريخ ١٩ اغسطس ١٨٢٦ ولكن تبين فيما بعد زيف هذه الاشاعة وخلوها من الصحة . (مترجم) .

(4) يذكر ميكاكي في ذات المصدر ان القنصل الانجليزي قد بعث الى حكومته بنبأ سلامة الميجر ومواصلته للرحلة في رسالته بتاريخ ١٤ سبتمبر ، و٢٦ منه ، و١٠ نوفمبر ١٨٢٦ . (مترجم) .

(5) يتفق كل من موري وجوهنستون ان وصوله اليها كان في يوم ١٨ اغسطس سنة ١٨٢٦ (مترجم) .

وأكرموا وفادته ، غير أنه لم يستطع تمديد إقامته بها كثيراً لأن محمد بَلّـو(1) سلطان قبائل « الفولا Follan » كتب إلى أعيان المدينة حينما أخبر بوصول الميجر إلى تمبكتو وطلب منهم عدم إطالة إقامة ذلك الأجنبي ، وموعزاً إليهم بتدبير طريقة لقتله والتخلص من آثار عمله الذي قام به وأنجزه .

ولم يستطع أعيان تمبكتو الإقدام على تحدي أمر السلطان محمد بلو ، لنفوذ جماعته في البلاد ، وفي نفس الوقت كانوا لا يريدون إغفال توصيات الباشا والشيخ مختار الختناوي ، ولذلك اتفقوا على حمل لاينج على مغادرة البلاد فوراً(2) ؛ فاضطر لاينج المسكين إلى مغادرة تمبكتو ليلاً متخذاً طريقه إلى سانسيدي « Sansédi » بمنطقة بانبرا « Banbra » يصحبه عبده الوحيد أوباقاندي « Ubagandi » وهو الذي بقي من عبيده على قيد الحياة بعد حادثة الهجار ، وعدد من التمبكتيين الذين استأجرهم لخدمته في الطريق . أما التجار الغدامسيون الذين رافقوه في رحلته فلم يجازف أحد منهم بالسفر معه بعد التحذير الذي تلقوه من سلطان الفولا القوي النفوذ .

وبعد أيام من السفر ، وعلى بعد مراحل من تمبكتو اعتدى على الميجر المسكين أثناء نومه أحد الوطنيين المرافقين للاينج يدعى رَحّالْ Rahhal من قبيلة البرابيش فقتله(3) ، وقضى على جميع الآلات التي يحملها معه

---

(1) يقول عنه جوهنستون انه (حمادو) ، وهي لغة في محمد تستعمل احيانا حتى في برقة ، ويلجا المتحدث اليها حين الرغبة في (التدليع) او حين القصد في التحقير والاهانة . (مترجم) .

(2) يقول جوهنستون انهم نصحوه بعدم مواصلة السفر لان وجود النصارى في تلك البلاد امر غير مرغوب فيه . (مترجم) .

(3) يقول جوهنستون ان المكان الذي اغتيل به يسمى الاروان Aruan على مراحل الى الغرب من تمبكتو ، كما يذكر ان اغتياله تم بتدبير من سلطان الفولا . (مترجم) .

بالإتلاف والوثائق التي معه بالحرق .

وما ان علم تجار غدامس المتخلفين بتمبكتو بأمر الاغتيال هذا حتى سارعوا بإبلاغ يوسف باشا عن طريق رسائل بعثوا بهـا إليه مع الخضر الذي كان قد تولى قيادة القافلة بعد موت شيخها الحاج محمد باباني فوصل هذا إلى طرابلس في يوليه من سنة ١٨٢٨[1] ، وسلم يوسف باشا رسائل الغدامسيين . ولكن أنباء اغتيال الميجر كانت قد وصت إلى طرابلس ، وأصبحت معلومة من سكانها قبل وصوله بزمن[2] . كما كان القنصل الانجليزي قد سارع منذ سماعه بالخبر بإعلام حكومته ، ناسباً الحادث إلى عدم عناية الباشا فيما أبداه نحو الميجر من اهتمام[3] ، كما طلب في نفس الوقت من يوسف باشا العمل على إيفاد شخص يدعى العزومي كان القنصل يثق فيه شخصياً ، مصحوباً برسائل منـه إلى الشيخ مختار الختناوي يرجوه العمل على معرفة كيف وفي أي مكان وقع اغتيال الميجر ، كما يطلب إليه

---

(١) يبدو ظاهرا على الاقل ان في هذا التاريخ خطأ ما ، ولكن رسالة الباشا الى الحكومة البريطانية ، والتي سيرد نصها فيمـا بعد ، تنفيه وتؤكد هذا التاريخ . والتفسير الوحيد الممكن لهذا هـو تأخر الخضر الذي لم يكن فيما يبدو على عجلة من أمره فكان في تنقله من بلد الى بلد يقضي مدة قصيرة او طويلة اما للراحة واما للمتاجرة وقضاء مصالحه الخاصة حتى اذا قدم طرابلس قدم للباشا ما يحمله من رسائل الغدامسيين . (مترجم).

(٢) يذكر ميكاكي انه في ابريل من السنة التالية ١٨٢٧ تلقى الباشا رسائل من مدينة غدامس ذكرت له ورود اخبار اليها تفيد مقتل الميجر لاينج ، وسرعان ما نقل القنصل الفرنسي روسو هذا الخبر الى دولته في رسالته اليها بتاريخ ٥ ابريل ١٨٢٧م بينمـا رفض وارنجتون تصديق الخبر وفضل التريث . (مترجم) .

(٣) يذكر ميكاكي ان وارنجتون على الرغم من عدم تصديقه بصحة النبأ فقد سارع بمقابلة الباشا وذكر له بانه يعتبره مسئولا عن مصير لاينج . ولكن الباشا احتج على هذا الاتهام ولفت نظر القنصل الى ما سبق ان وجههاليه لاينج من تحذيرات في حضور القنصل ذاته. كما ذكر ايضا ان الباشا استدعى قناصل الدول وطلب اليهم العمل على نشر الاخبار عن مصير لاينج كما وردته في صحافة بلادهم حتى يطلع الراي العام الاوروبي على حقيقة مجريات الامور ومصدر ميكاكي في هذا رسالة القنصل الفرنسي الى حكومته بتاريخ ٨ ابريل ١٨٢٧ ، ورسالة وارنجتون ذاته الى حكومته بتاريخ ٢٠ ابريل ١٨٢٧ . (مترجم) .

العمل على استعادة الوثائق التي قد يكون تركها من بعده[1] .

واستناداً إلى ما تلقته الحكومة الانجليزية من ممثلهـا في طرابلس ، فقد كتبت إلى يوسف باشا رسالة شديدة اللهجة في السادس والعشرين من يناير ١٨٢٨ أخذت عليه فيها ذلك التهاون ، وعدم الاعتناء الذي أبداه الباشا نحو مواطنها الميجر لاينج ونحو رواد آخرين من الانجليز .

وقد رد يوسف باشا على تلك التهم الموجهة إليه فيها مؤكداً بأنه لا يمكن أن يُعد مسؤولاً عن أمور وقعت خارج حدود إمارته . ثم حوّل — فيما بعد — جميع الخطابات التي حملها الخضر إليه ، إلى القنصل الانجليزي الذي اتخذ حولها الاجراءات اللازمة دون أن تفقده الأمل في استعادة وثائق الميجر ، ولذلك ظل في انتظار عودة مبعوثه الذي عاد إلى طرابلس في يونيه ١٨٢٩ مؤكداً الأنباء التي سبق أن جاء بهـا الخضر حتى فيما

---

(١) يذكر ميكاكي ان رسالة من التاجر الغدامسي محمد العابد الذي يقيم بتمبكتو منذ مدة طويلة، وصلت طرابلس في شهر سبتمبر ١٨٢٧ ، وقـد تضمنت تفصيـلات مقتل الميجر لاينج . ومصدر ميكاكي في هذا رسالة من القنصل الفرنسي روسو الى حكومته بتـاريخ ١٠ ديسمبر ١٨٢٧ .

وقد ازالت هذه الرسالة بتأكيداتها وصدق مصدرها اي شك لدى وارنجتون في مقتـل الميجر لاينج وقضت على امله وطعنته في صميم عواطفه الابوية (كان لاينج زوج ابنته اما ماريا كما سبق وان اشرنا الى ذلك) فصمم على ان يثأر للقتيل من جميع اولئك الذين ظن لحقده عليهم انهم مسئولون عن مقتله بصورة مباشرة او غير مباشرة .

ويواصل ميكاكي روايته هذه فيذكر ان وارنجتون طلب من قائد اسطول البحر المتوسط الانجليزي ارسال سفينة حربية الى ميناء طرابلس وما ان وصلت السفينة ايزيس ISIS حتى صحب قائدها السير توماس ستاينس Sir Thomas Staines الى الباشا ليؤكد له بان لديه مايحمله على الاعتقاد بانه (أي الباشا) ورجاله قد خانوا وخادعوا في سلوكهم تجاه هذه القضية ودون ان يقدروا نتائج هذا العمل الخطير (رسالة وارنجتون الى حكومته بتاريخ ٢١ نوفمبر ١٨٢٧) . وبالرغم من ان الباشا لـم يعط لتهديدات وارنجتون هذه اية اهمية لعلمه الاكيد بان وارنجتون سيكشف نفسه بمـا سيقدمه لحكومته من تقرير عن تصرفه هذا فقد اكتفى بان ذكر الحقائق كما يعلمها في هذا الموضوع (رسالة القنصل الفرنسي الى حكومته بتاريخ ٢٦ ديسمبر ١٨٢٧ . (مترجم) .

يتعلق بفقدان الوثائق المطلوبة[1] .

وفيما يلي النصوص المتعلقة بالموضوع مكتوبة بخط القليبي نفسه :

أولاً – رسالة من يوسف باشا إلى مختار الختناوي :

« الحمد لله ، وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وآله وصحبه وسلم » .

« الأجل الأفضل ، الوجيه الأقبل ، المحترم المبجل ، المختار بن محمد بن المختار الختناوي ؛ أصلح الله له الحال والمآل بمنه وبركاته آمين . يليه إعلامكم أنه ورد علينا جوابكم ، وقريناه من مبتـــداه إلى أقصى غايته ومنتهاه ، وفهمنا ما أفاده خطابكم على تفصيله[2] ، حول وصول النصراني الانجليزي والمعاملة الطيبة التي عاملتموه بها ، وعن سفره نحو منـــاطق تمبكتو ، وعن الحوادث المؤسفة التي تعرّض لها في الطريق ، وعن نهايته الفاجعة في بلاد تمبكتو . موجب الكتابة إليكم هو أن القنصل الانجليزي الذي علم بالخبر الفاجع رجانا القيام بتحريات دقيقة ، للتحقق من كيفية ومكان وفاة الانجليزي ، وحتى أي بقعة من الأرض بقي على قيد الحياة ، وما إذا كان قـــد ترك أوراقاً تواسي ذويه وتذكرهم به ، فإن الانجليز يعطون مثل هذه الأوراق قيمة كبيرة لأنهـا تساعدهم على تفهم طبيعة البلدان والأوطان » .

« ولهذا الغرض – أيها الصديق – أوفدنا إلى جنابكم عدداً من الرجال ، فإذا وصلوكم في سلامـة الله ، فإن ما نطلبه منكم قبل أي شيء آخر ، هو مساعدتهم في البحث عن أوراق الانجليزي في جميع الأماكن التي

---

(1) احمد القليبي : « انيس النفوس » ، نص رسائل يوسف باشا الى الشيخ مختار الختناوي والى الحكومة الانجليزية . (المؤلف) .

(2) اقتضب الاصل الذي نترجم عنه مقدمة الرسالة جميعها مع الاشارة الى ذلك ، وقد حاولنا اعادة هذه المقدمة ، معتمدين فيها على تلك الرسائل التـــي نشرت لها المجلـــة صورا بالزنكغراف وذلك باعتبارها اولى الوثائق التي يوردها المؤلف في مقالـه هذا . (المترجم) .

يمكن أن يكون قد مرّ بها ، فربما تجدونها كلها أو بعضها على الأقل ، لأننا لا نعتقد أنها ضاعت جميعها بسبب موته ، إذ ما فائدة تلك الأوراق لمن يأخذها ؟ ربما تجدونها في المكان الذي طعن فيه . وعلى كل فإن أي شيء تجدونه من متاعه سلموه لرسلنا ومكنوهم من العودة إلينـا سريعاً . ومن أجل هذا العمل والاهتمام نشكركم جزيل الشكر ، ومن جانبنا فنحن على استعداد لقضاء حاجتكم هنا إن رغبتم . أحسن الله لنـــا ولكم الختام وأماتنا على دين الإسلام[1] » .

« أول جمادى الأولى ١٢٤٣ هـ . (نوفمبر – ديسمبر ١٨٢٧)

التوقيع والختم »

ثانياً – رسالة من يوسف باشا إلى الحكومة البريطانية ؛ بدون تاريخ :

« السلام على من اتبع الهدى . . . (مقدمة التبجيل) . .

. . . وصلنا خطابكم بتاريخ ٢٦ يناير ١٨٢٨ ، والذي أبديتموه فيه من المودة المتبادلة بيننا والحكومة الانجليزية ، إلى غير ذلك . وقـــد أحطنا علماً بما فيه وأثبتناه . نعطيكم جواباً عليه لا يحتاج في لفظه ولا في معناه إلى مزيد ، ويكون في جملته وفي تفصيله خالياً من المآخـذ والعيوب » :

« أما في ما يختص بما ذكرتموه عن الأشخاص الثلاثة[2] الذين ارسلتموهم

---

(1) ليست الرسالة بهذا الاسلوب سوى ترجمة للترجمة الايطالية للاصل العربي ، وهذا يعني انها تغيرت في اسلوبها وفي الفاظها نتيجة للترجمتين وان احتفظت بمضمونها كوقائع تاريخية ومعان ذات دلالة . (مترجم) .

(2) وهؤلاء الثلاثة هم : الدكتور والتر اودني Walther Oudney والكابتن هوج كلابرتون Hugh Clapperton من البحرية التجارية الانجليزية والميجر دينهام ديكسون Denham Dixon (مترجم) .

إلى هنا لتمكنهم من مواصلة السفر إلى برنو ، والشكر الذي قدمتموه لنا على المعاملة الحسنة التي عاملناهم بها ، وعن الهدية التي قدمت لنا من قبل جلالة الملك ، مكافأة لنا على عملنا . تعلمون أن أولئك الأشخاص الثلاثة جاءوا إلينا[1] فقدمنا لهم المال والرجال[2] إذ لم يكن في حوزتهم ما يكفي للقيام بالرحلة ؛ وقد بلغوا غايتهم ثم عادوا إليكم سالمين[3] . وقد فعلنا ذلك لنزيد في توطيد التفاهم ونقوّي من روابط الصداقة التي نعتبرها غاية أمانينا دون أن نلتفت في ذلك إلى لوم زملائنا في الأوجقة الأخرى (أمراء الجزائر وبايات تونس) ومع ذلك فلم نتلق منكم ما يؤكد امتنانكم حتى ولا مجرد رسالة عادية ، ناهيك بما تذكرونه في رسالتكم عن المكافآت التي سلمت إلينا . إننا لم نقدم ما قدمناه في الحقيقة انتظاراً لأية مكافأة مالية عليه ، فغاية مـا نتمناه هو استمالة قلوب أولئك الذين نضع فيهم ثقتنا »[4] .

---

(١) لم نتمكن من معرفة تاريخ قدومهم ، وان كنا نعرف انهم غادروا طرابلس مبتدئين رحلتهم تلك في اوائل مارس سنة ١٨٢٢ م (مترجم)

(٢) يذكر موري ان دنهام قد عاد الى طرابلس تاركا زميليه بمرزق ليحصل من الباشـا على حامية من الرجال في ٢٠ مايو ، وانه عـاد بطلبه في ١٢ يونيه ١٨٢٢ حيث انضم اليه زميلاه في مرزق .

ولكن جونستون يروى في هذا ما يخالف ما تشير الرسالة اليه وما يؤكده مورى منها فهو يقول : ان البعثة ارغمت على التوقف عن مواصلة الرحلة للعراقيل التي وضعت بكل براعة في طريقها وان عودة دنهام الى طرابلس انما كانت للاحتجاج لدى الباشا على وضع تلك العراقيل في طريقهم طالبا من الباشا ازالتها ولما لم يحصل على غير وعود بالكلام اراد الابحار الى مرسيليا ليواصل سفره منها الى بريطانيا ، ولكن الباشا لما علم بهذا عاد فاستدعاه وقضى حاجته فتلاشت جميع العراقيل التي عاقتهم . ولا يخفى ما في هذه الرواية من تزوير للحقائق تفضحه الرسالة ورواية مورى معا . (مترجم) .

(٣) سافر هؤلاء من مرزق جنوبا الى قطرون ، فتاجرحى ، حتى برنو . وكانوا مكتشفي بحيرة تشاد . وبعد ان مات في ١٢ يونيه سنة ١٨٢٢ اودنى موتا طبيعيا عاد زميلاه بنفس الطريق حتى طرابلس فبلغاها في ٢٢ يناير ١٨٢٥ م. (مترجم) .

(٤) غريب امر هذه المنحة الملكية التي تقول الرسالة بانها قدمت للباشا ، بينما ينفي الباشا استلامه لها بل ولا حتى رسالة شكر عما قدمه للبعثة الثلاثية من مساعدات مادية وحماية معنوية . فهل ان رجالات الدولة البريطانية في ذلك العهد كانوا على نفس شاكلة معاصريهم من الاتراك ، يستأثرون بما تصل اليه ايديهم من مـال الدولة ؟ ان ما تؤكده الرسالة من هذا الامر لا يترك مجالا لغير هذا الاحتمال. (مترجم) .

« وأما فيما يختص بالميجر لاينج الذي قدم إلى هنا بقصد بلوغ تمبكتو وتلك الأراضي ، واللوم الذي توجهونه لنا على تأخير سفره ، ووضعنـا للعراقيل التي صادفها في توات ، وفي أماكن أخرى : ألا فلتعلم — أيهـا الصديق — أننا كنا أول من تنبه إلى هذه الصعاب ، ولفت نظر الميجر إليها ، فقد كنا نعلم أية عوائق توجد بتلك الطريق ، ولما لم يكن لدينا هناك معارف أو نفوذ فقد صرحنا له بأننا سوف لا نتحمل أية مسؤولية فيما عساه أن يحدث خارج حدود ولايتنا ، وقد كانت هذه التصريحات في حضور قنصلكم ذاته ، ولكنه (أي الميجر لاينج) أصر مع ذلك على رغبته في مواصلة الرحلة ، وتمسك بذلك . وسألنا أن نكلف أحد الأدلاء الخبيرين بدروب تلك الجهات بمرافقته ، فأسندنا هذه المهمة إلى واحد من خيرة شيوخ غدامس يدعى الحاج محمد باباني ، وكافأناه على عمله ذاك بأكثر من خمسة آلاف ريال ذهباً » .

« وسافر الميجر والخبير معاً من طرابلس ووصلا سالمين مدينة غدامس آخر حدود ولايتنا . ومن هناك واصل الميجر ورفاقه سفرهم إلى توات ، ولما خرجوا منها حدث لهم ما حدث لهم ؛ وسنحول جميع الأخبار التي ستردنا من تلك الجهات مهما كان نوعها إلى قنصلكم » .

« وأما فيما يختص بالشك الذي نشأ عندكم عن تقصيرنا نحو الميجر فإننا لم نكن نتصور أن شيئاً من هذا سيخالجكم إذ أننا كنا نعتقد اننـا لا نخدم إلا مصلحتكم أملاً في توطيد صداقاتنا بكم ويثبت حسن صنيعنا له تلك الرسائل التي وجهها إلينا وإلى وزيرنا الميجر لاينج نفسه من توات ، وهي كما ترون من صورتها المرفقة بهذه ، شاهدة بالمعروف المقدم منا إليه ، ومعارفة بالخدمات التي أسداها إليه الحاج محمد باباني[1] » .

---

(١) لم يورد الكاتب اسماعيل كمالى نصوص هذه المرفقات ولا خلاصة لها مما يجعلنا نحتمل انها كانت مكاتبات مجاملة مما يوجه عادة في مثل هذه الحالات من الضيف الى المضيف . (مترجم) .

« وأما حول كلابرتون وصديقه[1] اللذين قصدا بيت البنين ليصلا منها إلى سوكوتو[2] ثم يعودان منها عبر بلاد شيخ كانم متجهين إلى غدامس فطرابلس ، أنتم تقولون أننا كتبنا إلى الشيخ الكانمي[3] بأن يمتنع عن استقبالها ويسيء معاملتها : لقد استولت علينا الدهشة حتى كدنا نفقد معها العقل ؛ إذ ، كيف أمكن أن يخامركم الشك في هذا ؟ وعلاوة على ذلك تسطرونه في خطاب ؟ الحقيقة هي أننا نحن الذين سهلنا لهما سلوك هذه الطريق ، وساعدناهما بالخيل والرجال ، وبالأفعـال والأقوال حتى تمكنا من بلوغ غايتهما ، باختراق المنـاطق المذكورة أعلاه[4] . ولو كان

(1) يقول جوهنستون عن صديقه هذا ان اسمه ريشارد لاندر Richard Lander وهو من مواليد Cornovaglia لم يحظ في صغره بثقافة مناسبة ولكنه تعلم فيما بعد اثناء اشتغاله كخادم في أوربا وجنوب افريقيا وقبل ان يدخل في خدمة كلابرتون . وقد عاد هذا فيما بعد الى بريطانيا . (مترجم) .

(2) يتفق كل من ميكاكي وجوهنستون على ان كلابرتون عقب عودته من الرحلة الاولى التي قام بها مع زميليه من طرابلس حتى مجرى النيجر ، وبحيرة تشاد، كلف من قبل الحكومة الانجليزية برحلة اخرى بدأها من بيت البنين (نيجريا الجنوبية) ، وحينمـا وصل الى سوكوتو اصيب بمرض الدسنتاريا (ميكاكي) أو الحمى (جوهنستون) ومات بها في ١٣ ابريل سنة ١٨٢٧ ، دون ان يدخل ليبيا لا من الشمال ولا من الجنوب . (مترجم) .

(3) هو محمد الامين الكانمي عربي في اصله من كانم الى الشمال الشرقي من رأس تشاد استقر ببلاد برنو في اوائل القرن التاسع عشر واستطاع بسعة مداركه وذكائه وحصافة رايه ان يصبح مستشارا لملك تلك البلاد . وقد ساند الملك وشعبه في صراعهم لطرد غزاة قبائل الفولا وقد مكنه هذا من ان يصبح الملك الفعلي (غير المتوج) لمملكة برنو تلك . ويقول احمد بك النائب ان الشيخ محمد الامين الكانمي هذا كان قد تلقى علومه بمدينة طرابلس على اسانيد اعلام منهم الشيخ محمد ابى طبل والشيخ عبدالله بن غلبون . ويقول ايضا انه في سنة ١٢٣١ (١٨١٤) انتقضت بعض اعمال برنو على حاكمها يومئذ (الكانمي) وعجز عن تاديبهم فاستصرخ يوسف باشا بواسطة مشائخه فسرح اليه القائد محمد المكنى في العساكر والمهمات الحربية فاخضعهم له وعـاد محملا بالمتاع والرقيق . وفي سنة ١٢٤٢ (١٨٢٥) تالفت بعض اعمال برنو واعلنوا بالشقاق ، وعادوا الى حالهم من الاستبداد وقطع اسباب الطاعة فبعث حاكمهم الكانمي ليوسف باشا يستنجده مرة اخرى فارسل اليه العساكر وعقد عليهم لعبد الجليل سيف النصر ثم عاد هذا محملا بالغنائم والرقيق بعد ان قضى على الفتنة بينهم . (مترجم) .

(4) في هذا الجزء من الرسالة تداخل وتشويش اذ ان يوسف باشا في رسالته هذه يخلط بين رحلة كلابرتون الاولى والثانية وذلك بعد ان يؤكد وصول الثلاثة سالمين. اللهم الا اذا كان يريد ان يبرهن بمـا أتاه وقام به نحوهم في الرحلة الاولى على سلامة نيته وصدق اخلاصه في مساعدتهم مما لا يستقيم معه لذي عقل اتهامها له هذا في رحلتهم الثانية او ما خلاصته انه لو اراد عرقلتهم في الثانية لاعاقهم في رحلتهم الاولى عبر اراضيه . (مترجم) .

الأمر كما تتصورون من أننا كتبنا إلى الشيخ الكانمي[1] وإلى بعض عمالنا المقيمين في مرزق بعرقلتهما لما بعثرنا جهودنا حتى نمكنهما من الوصول إلى تلك المناطق » .

« وفيما يتعلق بقولكم : « إن أي إنسان يمر عبر أراضينا نعتبر مسؤولين عن سلامته في شخصه » . ألا فلتعلموا أن الملك ، كما هو معلوم من ذوي العقول النيرة ، لا يعد مسؤولاً في حكمه إلا فيما وعما يقع داخل حدود بلاده إذ لا سلطان له على رعايا لا يخضعون فعلياً له . ولهذا فإننا كنا لا يمكننا أن نقدّم لهما أية ضمانات ، ولا نتحمل مسؤولية إعادتها سالمين . وحول إلحاحاتكم بوجوب التحري عن مصيرهما ، والبحث عن مذكراتها وتسجيلاتها ، تعلمون أيها الصديق بأننا لم ندخر جهداً ولم نتوان عن تتبع أخبارهم لمعرفة المكان الذي يوجدون به ، ولن نتوقف حتى نصل إلى معلومات أصدق » .

« واما عن الميجر لاينج فبعد الحادث الذي وقع له عند خروجه من توات اتجه إلى منـازل الشيخ مختار حيث بقي في ضيافته إلى أن شفي من إصاباته . أما رفيقه الحاج محمد فقد توفي هناك . وقد سافر الميجر بعد ذلك الى تمبكتو بمعاونة الشيخ مختار ، غير أنه حينما وصل إلى هذه المدينة ، وعلم بوصوله أفراد قبيلة الفولا ، أوعز رئيسهم إلى السكان بقتله ؛ ولكن هؤلاء لم يستجيبوا له فأخرجوا الميجر من تمبكتو تحت جنح الظلام برفقة أحد الرجال كلف بمرافقته إلى ناحية السواحل الغربية ، ولم يشأ القدر ذلك فقتل فيما يقال . وهذا هو ما عرفناه من تجـار وصلوا حديثاً من تلك الأصقاع[2] » .

(1) ليس الشيخ الكانمي باحد عمال الباشا الخاضعين لسلطانه كما قد يتبادر الى الذهن وكل ما هنالك ان صلات ودية ، وعلاقات طيبة كانت تربط ما بين الاثنين وتجعل ايهما يرعى مصالح الاخر في بلاده . (مترجم) .

(2) هذه العبارة تؤكد صراحة عدم مقابلة الباشا للخضر وعدم استلامه للرسائل التي كـان يحملها معه وهو ما ذهبنا اليه في تعليقاتنا السابقة (مترجم) .

« وما ان علمنا بالخبر حتى أوفدنا إلى تلك الجهات رجلاً من جانبنا ورجلاً آخر من جانب القنصل ، وصرفنا للمبعوثين حوالي خمسمائة ريال ذهباً وزودناهما بخطاب موجه إلى الشيخ مختار ، وأمرناهما بالذهاب إليه ، وإذا أمكن إلى تمبكتو أيضاً للحصول على معلومات صادقة ، وكلفناهما بالبحث عن مذكرات الميجر ، وكل ما قد يكون تركه . وكانت أوامرنا إليهما من الوضوح والصراحة بحيث لا يمكن أن تكون أوضح من ذلك . وما سيحملانه من أنباء ومن أوراق سنحوله فوراً إلى قنصلكم . وأما عن « كلابرتون » فقد علمنا بأنه وصل إلى بلاد السلطان محمد بلو ، ويشاع أنه مات هناك ولكن هذا لم ينتـه إلينا من تحريات ، ولا هو مستقى من خطابات وردت من هناك . وقد كتبنا في الأمر إلى الشيخ الكانمي ليعلمنا عن مصير كلابرتون طالبين الاعتناء به إن كان حياً ، والحصول على كتاباته إن كان ميتاً ؛ وأن يكون رده علينا بأسرع ما يمكن ؛ ولكن ، يجب أن لا ندهش إذا تأخر الشيخ الكانمي في رده علينا نظراً لحـالة الحرب القائمة بينه وبين السلطان محمد بلو المذكور[1] » .

هذه هي خلاصة الأخبار التي وصلتنا عن الرحالة المذكورين ، والله وحده هو العالم بكيفية سير الأمور » .

« إن الصداقة القائمة بيننا وبينكم أنتم يا رجال الحكومة البريطانية لا تزال مستندة إلى دعائم ثابتة قوية مترابطة ببعضها فقد عقدت بين آبائنا وأجدادنا ، ودعمها تفاهم متبادل ومصالح مشتركة حتى أصبحت أشهر من نار على علم ، وأشد إشراقاً من البرق في الليـلة الظلماء ؛ ونحن ، أولى وأجدر بالمحافظة عليها ؛ ولن يحدث بمشيئة الله من جانبنا شيء لا يقوّي

(١) من المعلوم ان كلابرتون كان قد انتهى في رحلته هذه الى سوكوتو حيث منعه السلطان محمد بلو شيخ قبائل الفولا من مواصلة رحلته لشكه فيه واحتمال كونه جاسوسا يعمل لصالح الشيخ الكانمي . وقد تقدم خبر اصابته بمرض الحمى او الدسنتاريا ووفاته بتلك المدينة في ابريل من سنة ١٨٢٧ م . (مترجم) .

روابط الصداقة ، أو لا يحقق هذه الغاية . وإلى الله المصير وهو اللطيف بعباده[1] » .

•

لم تكن العلاقة — في الزمن الذي وقع فيه الحادث — بين يوسف باشا القرمانلي والقنصل الانجليزي « وارنجتون » على ما يرام ، كما كانت من قبل ، فقد رأى يوسف باشا أن يقلل كثيراً من صلاته بالقنصل الانجليزي حتى لا يثير من جـانب حفيظة القنصل الفرنسي روسو « Rousseau »[2] . ولكي لا يزيد من جانب آخر في انتقادات حزب الأهالي لسياسته .

وقد كان ، في ذلك الوقت ، بطرابلس ، حزبان[3] يتنازعان فيما بينهما السلطة ، هما :

حزب القول أغلية[4] : الذي يرئسه رئيس الوزراء الحاج محمد الشيلابي

(١) الى هنا تنتهي الرسالة او ما اورده منها كاتب المقال ، وهذه الرسالة هي ايضا ترجمة للترجمة الايطالية للاصل الذي نقل الكاتب عنه ومن الطبيعى ان تكون في اسلوبها مغايرة نتيجة ترجمة الترجمة . (مترجم)

(٢) كان الصراع بين قنصلي فرنسا وبريطانيا في طرابلس تقليديا ، ولم يخف حتى في الاوقات التي تتفاهم فيها الدولتان ، ومرده في حقيقته الى صراع عام بين الدولتين في الميـادين السياسية والاقتصادية وان اصطبغ في بعض الاحيان بالصبغة الذاتية للقنصلين كما حدث حينما كان يمثل فرنسا قنصلها روسو ، وبريطانيا قنصلها وارنجتون . (مترجم)

(٣) اذا صحت التسمية واعطت مدلولها اللفظي فان ليبيا تكون اول بلد عربي عرف نظام الحزبية الحديث. غير اننا عملا بالامانة التاريخية لا نرى هذا الرأي فان نوع الحكم الاستبدادي الفردي المطلق المعروف تاريخيا عن يوسف هذا ، ومستوى الوعى العام لدى الجماهير الشعبية انذاك يجعلنا نتشكك كثيرا في ان يكون للحزب معناه السياسي ومدلوله التنظيمي وان كان يقلل من هذا التشكك كون زعيمي الحزبين على مستوى ثقافي عال وعلى صلة بالعالم الاوربي وكون حسونة الدغيس منهما قد قضى خمس سنوات في باريس وثلاث اعوام في لندن كسفير لبلاده فيهما مما يجعلنا نجزم بانه عرف التنظيم الحزبى وخبره في اعرق بلاد مارسته (بريطانيا) وقد يكون رغب في تكوينه حين عاد لبلاده . (مترجم) .

(٤) القول اغلية او الكراغلة ، كما عرفوا فيما بعد ، كانوا في الاصل من الرقيق الاوربي (العلج) او من رعايا العثمانيين النصارى (وهؤلاء الاخيرين هم في معظمهم من اغريق جزر بحر ايجه) الذين اعتنقوا الاسلام ، وتزوجوا من النساء الوطنيات المسلمات . وقد كان

ـت المال » ويمثل هـذا الحزب السلطة القوية القائمة في الولاية ، وعليه
ـتمد سياسة يوسف باشا .

حزب الأهالي : الذي يرأسه السيـد النبيل حسونة الدغيس وزير
الخارجية (سابقاً) وصهر ولي العهد الأمير علي باي بن يوسف القرمانلي[1]
بالرغم من أن هذا الحزب يعد من حيث القوة والأهمية أقل من الحزب
الآخر إلا أنه كان مع ذلك قوة يحسب حسابها .

القول اغلية فيما مضى يكونون طبقة الجند في الولاية ، كما كانوا حتى في بداية العهد القرمانلي (١٧١١) منفصلين طبقيا عن جند الانكشارية الذين هم في معظمهم من اصل تركي . اما تحت الحكم القرمانلي (١٧١١/١٨٣٥) فقد اطلق اسم القول اغلية على جميع الذين انخرطوا في سلك الجندية سواء اكانوا قول اغلية او اتراكا او من المواطنين الطرابلسيين وتحت الحكم العثماني المباشر (١٨٣٥ — ١٩١١) امتد هذا الاسم حتى شمل بعض بيوت القبائل العربية التي جند افرادها كقبائل الجوارى (الرقيعات ، العلاونة ، الختنة ، وغيرهم) وقبائل ورشفانه في سنة ١٨٦٦ . والمحاميد (اولاد سعيد بن صولا ، السباعة اولاد شبيل ، الحوامد ، اولاد سلطان) في سنة ١٨٨٠ وقبائل الشاطىء في سنة ١٨٨٧ ، (المؤلف) . اما في العصر الحاضر فهم يكونون عددا من قبائل مصراته ، وقد اكتسبوا مع الزمن ونتيجة الجوار والمصاهرة جميع مقومات المجتمع القبلى ، وهم يعتبرون كذلك . (المترجم) .

(١) ذكر ميكاكي انه كان ليوسف باشا سبعة ابناء ثلاثة من ام بيضاء هم محمد ، واحمد وعلي ، واربعة من جارية سوداء هم : ابراهيم ، مصطفى ، عصمان ، وعمورة . ويذكر ميكاكى ان العلاقة بين الاب وابنائه وبين الاخوة فيما بينهم كانت متوترة ابدا وان كل واحد من الاسرة يشك في الاخرين ويخشاهم فما من مرة حاول الاب مقابلة بنيه او اى منهم الا في حراسة مشددة ، وكذلك يفعل الابناء اذا ما تقابلوا او اجتمعوا . (مصدره رسائل قنصلية سردينيا في طرابلس الى وزارة خارجية بلادهم . رسالة رقم ٣٦ بتاريخ ٤ نوفمبر ١٨٢٦) .

وكان محمد هو ابنه البكر وولى عهده حتى اذا ما ثار على ابيه وغلب على امره في ثورة درنه واضطر الى الفرار الى مصر ولى يوسف باشا ابنه الثاني احمد ولاية العهد مع لقب باي ، وكان هذا قد سبق له ان قتل زوجته (مصدره رسالة وارنجتون الى دولته بتاريخ ٢٧ مايو ١٨٢٦) ، ولكنه في اكتوبر من سنة ١٨٢٦ تآمر على قتل أبيه ولكن المؤامرة انكشفت قبل التنفيذ فاكتفى والده لضعفه انذاك بان حرمه من ولاية العهد التي جعلها لابنه الثالث من غير الجارية علي باي (مصدره الرسالة رقم ٨ بتاريخ ١٨ اكتوبر ١٨٢٦ من قنصلية توسكانا — الرسالة بتاريخ ١٨ اكتوبر ١٨٢٦ من وارنجتون الى حكومته (مترجم) .

وكان رئيس الحزب الأول « الحاج محمد الشيلابي بيت المال » من حيث
الثقافـة ، ونبل الشخصية ، والنفوذ ، شخصاً محترماً يتمتع بكثير من
التقدير حتى بين خصومه ؛ ومع أنه كان كبقية الطبقة المثقفة يميل لفرنسا
لكثرة مستشرقيها (الذين يعتبر من بينهم القنصل الفرنسي العام روسو
لمعرفته الواسعة بأحوال العالم الاسلامي) إلا أنـه — أي الشيلابي — وهو
يعرف جيداً مدى التنافس الشديد القائم بين السياستين الفرنسية والانجليزية
لم يذهب في ميوله (الفرنسية) إلى الحد الذي يثير الشكوك لدى القنصل
الانجليزي . وقبل أيام قليلة من تأكد خبر مقتل الميجر لاينج ، وبالدقـة
في ٢٦ يونيه ١٨٢٩ ، سافر في مهمة إلى درنه وذلـك على اثر وصول
تقرير رسمي من حاكم برقة ، في تلك الأيام ، يشير إلى تجوال ثمانمائة فارس
مصري في منطقة درنه فأكد هذا الخبر إشاعة رائجة منذ سنتين حول
رغبة محمد علي باشا خديو مصر في الاستيلاء على خليج بمبة[1] . ولهـذا
اضطر يوسف باشا إلى إيفـاد الشيلابي في سرعة إلى تلك المنطقة مسنداً
إليه مهمة الدفاع عنها[2] ، وكلف مدة غيابه رئيس الكتاب إبراهيم بومَيِّس

---

(١) يقع هذا الخليج فيما بين طبرق ودرنة قرب منطقة عين الغزالة تتوسطه ثلاث جزر صغيرة غير مأهولة وقد ظن في وقت ان له قيمة استراتيجية حربية فطالبت به روسيا لتتخذ منه مرفأ لسفنها ولكنها لم تمكن من الحصول عليه . (مترجم) . (انظر كذلك هامش ١ من ص ٣١)

(٢) يذكر ميكاكي خبرا بمصادره التي سنوردها في نهاية هذا الهامش حول ما قامت به فرنسا من محاولات لبسط نفوذها على المغرب فقال ما ترجمته : كما هو معلوم فان فرنسا منذ سنة ١٨٢٧ وبعد ان اتخذت احتياطات اولية للانتقام من داى الجزائر حسين على تحديه لقنصلها ديفال Deval قدم دروفيتي Drovetti قنصلها العام في الاسكندرية اقتراحا لوزير الخارجية La Ferronays يقضي بان تعاون فرنسا محمد علي في ان يزحف بجيشه برا ليخضع الامارات الثلاث بشمال افريقيا . ولكن المشروع الذي اهمل من هذا عاد الى الحياة من جديد في عهد بولينياك Polignac الذي كان يريد ان يتجه بسياسة فرنسا الى مصر . وبعد ان استوضح من دروفيتـي وعلم ان شروط محمد علي تقتصر على الحصول على موافقة السلطان وعلى معونة من فرنسـا مقدارها عشرة ملايين فرنك تقدم بالمشروع ليحصل على موافقة مجلس الوزراء فالملك وحصل بالفعل على موافقة بان يبدأ المباحثات حوله التي قام بها السفير العـام

برئاسة الوزارة بالوكالة ، وهــذا أيضاً قول أغلي ، غير أنه بالنسبة إلى الشيلابي يعد شخصاً خالياً من أية موهبة .

أما حسونة الدغيس رئيس حزب الأهالي فبالرغم من أنه واسع النفوذ في الداخل مثل الشيلابي ، إلا أنه يفوقه كثيراً في مجتمع المدينة لمعرفته الجيدة بعدد من اللغات الأوروبية من بينها الفرنسية ، ولاطلاعه الواسع في الثقافة الغربية . شغل منذ بداية عـام ١٨٢٦ منصب وزير خارجية

Guilleminot بالاستانة والقنصـل العام Mimaut في الاسكندرية وبدا لاول وهلة ان السلطان يوافق على السماح لمحمد علي بالمهمة ولكنه عاد مستسلمـا للاسباب التي قدمها السفير البريطاني السير روبرت جوردون فاشترط ان يتدخل في الحملة بان يرسل الى الجزائر شخصا من قبله «طاهر باشا» وابدى محمد علي من جانبه قبوله القيام بالحملة غير انه اشترط ان توضع تحت تصرفه اربع سفن حربية قوية . ولكن بولينياك استعد بدلا من السفن الاربعة مزيدا من المال ومساندة فرنسا له ضد أي اعتداء من جانب قوة ثالثة : تركيا او بريطانيا . وقدم له مشروع اتفاق بهذا المعنى وفي نفس الوقت اعطى لدول اخرى فكرة عن الموضوع . فاما روسيا فقد اكتفت بان ابدت بكل بساطة شكها في امكانية تحقيق المشروع واما النمسا وبريطانيا فقد اعلنتا رفضهما له وعدم موافقتهما عليه وفيما يختص ببريطانيا فقد رات انه في اعطاء الولايات الثلاث (ليبيا ـ تونس ـ الجزائر) لمحمد علي ما يعني امتداد نفـوذ فرنسا ـ ولو بصورة غير مباشرة على هذه الاقاليم الامر الذي يهدد نفوذها في جبل طارق وكرفو ومالطا . وهكذا مـات المشروع .

وقد قدم في سنة ١٨٣٠ (مارس) بولينياك الى مجلس الوزراء والملك مشروعـا ثانيـا جديدا يقضي بان تستولي فرنسا بقواتها على الجزائر ويستولي محمد علي بقواته على تونس وليبيا وحتى هذه المرة لم ينجح المشروع لمعارضة بريطانيا له من طريق اتصالها بمحمد علي وابلاغه بانها سوف لا ترضى عن أي عمل يقوم به بالاشتراك مع فرنسـا .

مصادره :

serres J. - la politique turque en Afrique du Nord sous la Monarchie de juillet. Paris, Geuhtner 1925 P. 17 .. Darcy J.: France et Angleterre - cent années de rivalité coloniale. L'Afrique - Paris, Perrin, 1904, P. 68 .. Charles Roux F. : France et Afrique du Nord avant 1830 - Les Précurseurs de la conquête - Paris 1932, P. 624 ... Douin G.L. Mohamed Ali et l'Expedition d'Alger. Le Caire 1930.

وفي جو هذه المناورات والمساومات استبد بيوسف باشا القلق والخوف من ان توافق الدول فيؤخذ على غرة بقوات محمد علي المصرية ولذلك اخذ يستعد للامر ولهذا ارسل برليس ورزائه الى الحدود الشرقية لبلاده . (انظر كذلك هامش رقم ١ من ص ٣١ من هذا الكتاب) ـ مترجم ـ .

يوسف باشا ، وكان قبل ذلك قـد قضى ثلاث سنوات في لندن وخمسة أعوام في باريس في مهام سياسية (سفير ؟) . كما كان أبوه محمد الدغيس هو الآخر شخصية هامة في عهده ، فقد ظل لسنوات عديدة وزير يوسف باشا ، وهو صانع معاهـدة ١٨ يونيه ١٨٠١ التي عقدت بين حكومة الولاية القرمانلية والقنصل الفرنسي بوسر « Beaussir » والتي سمح فيهـا لقوات نابليون الأول التي كانت محاصرة في مصر من الأسطول الانجليزي بحرية الاتصال بفرنسا من طريق ليبيا . وقد كان حسونة محبوباً من جميع الأوربيين المقيمين في طرابلس ولا سيما من وارنجتون قنصل بريطانيـا وروسو قنصل فرنسا اللذين كانا يتنافسان على اكتساب صداقته ؛ أما هو فقد كان يقدم على الجميع مصلحة بلده وولاءه لأميره الباشا ، فأوقعه هـذا الاخلاص في الوطنية والولاء للباشا في سخط روسو أولاً حوالي أواخر سنة ١٨٢٦ وأثار عليه بعد ذلك حفيظة وارنجتون في العام التالي :

ففي الرابع من نوفمبر ١٨٢٦ وعـد يوسف باشا القنصل الفرنسي روسو بأنه سيزور القنصلية الفرنسية زيارة رسمية ليهنىء بعيد ملك فرنسا شارل الأول . ولكن حسونة الدغيس كوزير للخارجية ما إن سمع بأمر هذا الوعد حتى قابل الباشا ولفت نظره إلى خطأ هذا التصرف مؤكداً لمولاه بأن هذه الزيارة ستصبح لو تمت تقليداً يطالب به قناصل بقية الدول[1] . واقتنع البـاشا بالنصيحة ولم تتم الزيارة فأدى هذا إلى قطع العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا والإمارة القرمانلية ، ولإعادتهـا اضطر يوسف باشا إلى إعفاء حسونة الدغيس من منصبه كوزير للخارجية[2] .

---

(١) يذكر ميكاكي ان هناك اكثر من احتمال يدفع الى الظن بان النصيحة كانت من صنع وارنجتون وغايته منها الفصل بين الدغيس واصدقائه من قناصل الـدول الاخرى . (مترجم) .

(٢) يشير وارنجتون في مراسلاته الى هذا الحادث اشارة مقتضبة ، ناسبا اعفاء الدغيس من منصبه كوزير للخارجية الى صداقته لبريطانيا (رسالة وارنجتون لدولته بتاريخ ٢٦ نوفمبر ١٨٢٦) . (مترجم) .

ولكن وارنجتون (الذي كان يناصب القنصل الفرنسي العداء) لم يعترف بهذا الإعفاء ، بل ظل نكاية في القنصل الفرنسي يجري جميع اتصالاته بالولاية من طريق الدغيس . غير أنه انتهى هو الآخر في مايو ١٨٢٧ الى مطالبة الباشا بإبعاد حسونة نهائياً عن القصر متهماً إياه بفتح الطرود التي كانت تبعث بها دولته إلى داخل القارة عن طريق الولاية(١) .

وسارع القنصل الفرنسي على أثر هذا الاتهام إلى مصالحة حسونة فاكتسب بهذا عطف حزب الأهالي الذي كان حسونة أبرز شخصية فيه(٢) .

في هذا الوقت كان وصول آخر الأنباء المؤكدة لمقتل الميجر لاينج . وما إن تأكد وارنجتون من صحته حتى استغل المسألة في الضغط على الباشا(٣) فطوى علم دولته وذهب لمقابلة الباشا ، ومجابهته بأنه لا يعتقد أن الحادث قد وقع على الشكل الذي روي له بل إنه يرى على العكس من ذلك ، مؤامرة سياسية وراء مقتل الميجر ، ولا بد أن الباشا نفسه على علم بطرف من خيوطها(٤) .

أقلقت هذه الاتهامات التي وجهها وارنجتون يوسف باشا كثيراً ولا سيما في تلك الآونة التي كان يعول فيها على صداقة الدولة البريطانية في حالة ما إذا أقدم محمد علي باشا (والي مصر) على تحقيق أهدافه التي سبقت

---

(١) ومن ذلك التاريخ الغي منصب وزير الخارجية في الدولة القرمانلية ، واسندت اعماله الى رئيس الوزراء . (المؤلف) .

(٢) وكان وارنجتون في الشهور الاولى من سنة ١٨٢٨ – فيما يذكره ميكاكي – قد صالح قنصل فرنسا لما وجد نفسه عرضه لانتقادات صريحة من قنصلي السويد والدانمارك وغير مقبول من بقية القناصل زملائه . ولكنه سرعان ما عاد فخاصمه من جديد حينما لم يستطع ان يغفر له تفوقه عليه في المصالحة بين حكومة الباشا ومملكة الصقليتين وذلك غيرة وحسدا منه، ولعل هناك اسبابا اخرى غير محددة (تاريخيا) . (مترجم) .

(٣) يقول ميكاكي ان وارنجتون قد قرر مدفوعا بحقده على روسو قنصل فرنسا وبغضه له ان يزج به في قضيةلاينج هذه ويلصقها به وببلاده . (مترجم) .

(٤) راجع الهامش رقم ١ من ص ١٧ من هذا الكتاب . لعل هذه هي المقابلة التي تمت بينه وبين الباشا بمصاحبة قائد السفينة الحربية ايزيس التي استدعاها هذا القنصل ذاته (مترجم) .

الإشارة إليها ضد الإمارة(١) . وكان وارنجتون على علم بهذه المخاوف وكان في ضغطه ذاك معولاً عليها .

وبعد أيام من ذلك جاء وارنجتون إلى الباشا موجهاً في هذه المرة التهمة في صراحة(٢) إلى حسونة الدغيس مدعياً بأن حسونة استولى على

---

(١) يقول ميكاكي ان اول اشاعة حول عمليات عسكرية من جانب محمد علي باشا ضد الولاية راجت في طرابلس في اواخر سنة ١٨٢٧ كانت غامضة ولكن هذه الاشاعة ازداد تأثيرها حينما علم في يناير ١٨٢٩ بان سرية من الفرسان المصريين يتجولون في اراضي درنه واتخذت طابع التأكيد حينما قدمت سفينة بحرية سفرت في سرعة من بنغازي لتحمل اخبارا تتردد عن حركة تجنيد وتسليح قائمة على الحدود الشرقية لبرقه مما اخاف الباشا ودعاه الى استدعاء المجلس الاعلى للولاية لاتخاذ التدابير الضرورية لمجابهة الموقف وللدفاع عن الوطن ان اقتضى الامر . وبعد ان اكد المجتمعون استعدادهم للموت قبل الخضوع لحكم محمد علي قرروا ضرورة الدفاع وبالسلاح ضد أية محاولة للغزو . وفي ١٩ مارس سافر الحاج محمد بيت المال الى درنه مصحوبا بحوالى ٢٠٠ فارس يساعدونه على تجنيد الناس وتسييرهم الى المرابطة على الحدود . ولم تكن اخبار التحشدات المصرية على الحدود هي التي دفعت بالباشا الى اتخاذ هذه الاحتياطات فقد علم كذلك بمخطط الحكومة الفرنسية الذي عممهوزير خارجية تلك الدولة علىالدول الأوروبية ممادفعه الى سرعة العمل .

ويقول ميكاكي ان وارنجتون من جانبه قد اهتم بالامر فاوفد مركبا لمالطة تستقى له الخبر الصحيح وليعلم موقف الحكومة البريطانية من هذا المخطط الفرنسي .

وقد ارسلت بريطانيا سفينة حربية الى قنصلها في طرابلس وبعد ان تباحث قائدها مليا مع القنصل الانجليزي ذهب وارنجتون الى الباشا ليؤكد له بان بريطانيا سوف لن تسمح مطلقا للحكومة المصرية بالتوسع على حساب جاراتها ، وبان مصالحها السياسية تحتم عليها الابقاء على الامارات الثلاث في شمال افريقيا على حالها التي هي عليه . وبالرغم من تلك التأكيدات فان يوسف باشا استمر في تحصيناته واستعداده للدفاع فبعث بمدفعية الى الحدود الشرقية وسلح اهل الساحل والمنشية واهتم بترميم واصلاح اسوار المدينة وزاد من تحصيناتها بان اشترى مدفعين من مالطة وكثيرا من الذخيرة . واصلح اسطوله وزاد من تسليحاته لما قدمت بارجة فرنسية Armide ارسلت للطمأنينة على سلامة الجالية الفرنسية هناك . كما اتصل بداى الجزائر ليطمئنه بانه لن يدع قوات محمد علي باشا تمر من اراضيه لتساعد القوات الفرنسية في الجزائر . ولم يهدأ بال الباشا الا حينما وردت رسالة من محمد الشيلابي بيت المال تؤكد ان استعدادات محمد علي باشا في مصر انما هي ضد باشا سوريا وليس ضد الولاية . (مترجم) .

(٢) يذكر ميكاكي أن وارنجتون حينما ذكر أن هناك ما يحمله على الاعتقاد بان مؤامرات روسو وأصابعه ليست ببعيدة عن مقتل لاينج طالبته حكومته بان يحدد ما يريد ان يشير اليه فاضطر حينئذ الى توجيه هذا الاتهام ضد الدغيس والقنصل الفرنسي معا. (مترجم) .

وثائق الميجر التي حملها الخضر إليه وأنه سلمها إلى القنصل الفرنسي[1] . وبما أن حكومته تعتبر هذه الوثائق ذات أهمية كبيرة بالنسبة اليها فإنه يطالب الباشا بإجراء تحقيق صارم يوضح الحقيقة ، ويحدد مسؤولية المدانين فيها (يونيه ١٨٢٩)[2] . واعتقد الباشا أن هذا الاتهام لا يمس سوى حسونة الدغيس والقنصل الفرنسي وحدهما ، ولذلك لم يمانع في الأمر وإنما استجاب من فوره للطلب[3] ، فكتب إلى ممثله في غدامس يأمره بالعمل على إيفاد الخضر وجميع الرجال الذين رافقوا الميجر في رحلته إلى السودان ، وكذلك جميع الذين تلقوا معلومات مباشرة عن مقتل الميجر إلى طرابلس . ثم استدعى حسونة الدغيس ، وفي حضرة القنصل الانجليزي وارنجتون واجهه بالتهمة وطالبه بالاعتراف بالحقيقة جميعها ، فنفى حسونة نفياً باتاً هذه التهمة التي يوجهها إليه القنصل ، وأبدى استعداده لتحمل أي عقاب ينزل به في حالة ثبوت التهمة بالدليل عليه .

وأمام تقريع القنصل الذي أخذ عليه فيما أخذ علاقته الوثيقة بالقنصل الفرنسي تخلى الدغيس عن الجدل والدفاع عن نفسه بانسحابه من القاعة مستأذناً الباشا وحده في الانصراف . ولكنه ، وهو الشاب الفطن الحذر ،

---

(١) ولهذه التهمة فيما يبدو علاقة وثيقة بما في طبيعة رحلة لاينج نفسها فقد ذكر جوهنستون انه كان على لاينج ان يتتبع بالتقريب طريقا ستمتد عبرها طريقا فرنسية لسكة حديد تربط ما بين شمال افريقيا واواسط القارة السوداء . وهو مشروع لم يتحقق ابدا . (مترجم)

(٢) يقول ميكاكي ان القنصل الفرنسي روسو حينما علم بأمر الاتهام هذا طلب الى وارنجتون ايضاحات حوله ، ولما امتنع وارنجتون عن الاجابة على طلبه ذاك ابلغ روسو وزير خارجية بلاده مطالبا اياه باتخاذ تدابير لرعاية شرفه . (مترجم) .

(٣) يقول ميكاكي ان يوسف باشا وهو يعلم من مصادر اكيدة من بينها العزومي رجل الثقة الذي وارنجتون نفسه بان الوثائق قد احرقت فعلا لم يشك مطلقا في زيف التهمة الموجهة من قبل القنصل وانه لذلك بقي في البداية مصرا على الرفض لها . غير انه خوفا من ان تنفذ تهديدات الانجليز وتحاصر بلاده عاد فاستجاب لرغبة وارنجتون بالتحقيق (مترجم) .

قدر خطورة الاتهام الموجه ضده وموقف الباشا منه فرأى من الأوفق الاحتياط للأمر في وقت مناسب لما قد تسفر عنه الحوادث ، فاتجه فوراً – كما كانت عادة ذلك العصر – إلى القنصلية الأمريكية ، وبواسطة قنصلها طالب الباشا بما يضمن له حسن نوايا القصر تجاهه . ولما رفض الباشا إعطاءه تلك الضمانات المطمئنة ، أبحر بالاتفاق مع القنصل الأمريكي وبتدبيره تحت ستار الليل على ظهر باخرة أمريكية كانت بالصدفة مسافرة في تلك الفترة من طرابلس (أغسطس ١٨٢٩) .

منح فرار حسونة الدغيس من طرابلس الفرصة للقنصل الانجليزي لإقحام الباشا يوسف القرمانلي نفسه في قضية لاينج : فما إن علم بالخبر حتى سارع إلى مقابلة الباشا وحمله على استدعاء محمد الدغيس أخ حسونة ، وعلى إرغامه على التصريح بأن الوثائق المنشورة دخلت فعلاً في حوزة أخيه ، وأنها سلمت إلى القنصل الفرنسي ؛ ومانع محمد الدغيس في البداية ورفض الإدلاء بالشهادة التي يطلبانها منه ، ولكنه تحت تهديد الباشا وضغط القنصل الانجليزي أقر بما لقناه إياه .

وفي تلك الأيام وصل جميع التجار الغدامسيون الذين طلب الباشا إحضارهم ، ما عدا الشيخ الخضر الذي فضّل الالتجاء – حينما علم بأمر التهمة الموجهة لحسونة الدغيس – إلى تمبكتو . فشكلت محكمة خاصة برئاسة الباشا نفسه ، وبحضور وارنجتون وقناصل الدانمارك والسويد وسردينيا قدم إليها الغدامسيون ؛ وقد أجاب جميعهم على أسئلة تدور حول تلك الوثائق بأنهم لا يعلمون من أمرها شيئاً عدا باباني (أخ للخضر أصغر منه) ، وشيخ حارة بني وازيط « Uazit » ، اللذان أقرا بأن الوثائق قد حملت من الخضر إلى طرابلس ، وبأنها سلمت فعلاً إلى حسونة الدغيس . فاستغل القنصل الانجليزي هاتين الشهادتين بأن طلب من الباشا دعوة المجلس الشرعي الأعلى لسماع شهادة محمد الدغيس التي اعترف فيها أمام

الباشا بجريرة أخيه ثم ذهب إلى القنصل الفرنسي يتنصل من تلك الشهادة ويلغيها .

ولم يبطىء المجلس الشرعي الأعلى في الانعقاد وكما هي العادة ، عقد برئاسة الباشا نفسه ، مكوناً من القاضي أحمد الطغار « Togar » ومن النائب عبد الكريم الأشيوص والمفتي محمد الأشيوص ، ومن العالمين الجليلين محمد المحجوب ، ومفتاح بن هنيدي . وحضر الجلسة القنصل الانجليزي والقنصل الهولاندي . وقد أجاب محمد الدغيس — الذي كان متفقاً من قبل مع الباشا على صيغة الشهادة — على الأسئلة التي وجهت إليه بأن الوثائق سلمت فعلاً من قِبل أخيه حسونة إلى القنصل الفرنسي ، وأكد بأن أية شهادة مخالفة لهذه قد يكون أدلى بها في السابق لا تطابق الحقيقة .

وعلى أثر هذه الشهادة ظهر على مسرح الحوادث قنصل فرنسا الذي كان طوال الفترة السابقة لا يبدي نحوها أي اهتمام ظاهر ، وطالب الباشا بالعمل على إصلاح الموقف بإيضاح شافٍ . ولما رد الباشا عليه برفض طلبه طوى علم القنصلية وغادر البلاد إلى باريس (سبتمبر ١٨٢٩)[١] .

وعلى ضوء التقارير التي بعث بها وارنجتون إلى حكومته بدأت سلسلة من المكاتبات والمذكرات الدبلوماسية بين لندن وباريس . ولكن فرنسا التي كانت واثقة من سلامة موقفها تمسكت بوجوب إجراء تحقيق صارم في قضية الميجر لاينج ووثائقه[٢] . وأسفرت التحقيقات عن سلامة موقف

(١) يقول ميكاكي ان القنصل الفرنسي طلب من الباشا اصدار بيان يصحح الوقائع ويحفظ كرامته وانه لما لم يحصل على مطلبه طوى علم القنصلية في الخامس من سبتمبر وابحر في سفينة الى تونس مكلفا قنصل اسبانيا دون ميجويل رويز **Don Miguel Ruiz** برعاية مصالح الفرنسيين . (مترجم) .

(٢) يقول ميكاكي ان التحقيقات في الموضوع قامت بها وزارة الخارجية الفرنسية لحسابها ومصلحة المستعمرات البريطانية Colonial Depart لحسابها وقد انتهى كل من المحققين الى استحالة التهمة الموجهة من وارنجتون ضد روسو وبالتالي الى تبرئة هذا ورد اعتباره (مترجم) .

مثلها .

هذه النتيجة الملائمة لفرنسا أعطت حكومتها مبرراً كافياً لمعاقبة يوسف باشا القرمانلي وشريك وارنجتون غير الحذر في تلك المؤامرة عقاباً رادعاً . وذلك بعد شهر واحد فقط من احتلال فرنسا للجزائر الذي تم رغم إرادة الانجليز[١] .

(١) نسخ من رسائل قنصلي سردينيا وتوسكانا . احمد القليبي : — انيس النفوس (المؤلف) .

الامكانيات المالية كانت تعوزه . وإذ ذاك ، اغتنم الشيلابي هذه الفرصة ليبتعد عن انهيار الدولة التي كان يعتقد أنها منتهية لا محالة ، فعرض على الباشا أن يذهب بنفسه إلى بنغازي ليقوم بمحاولات إقناع النـاس ، وليشرف على جباية الضرائب . ولما كان يوسف باشا عالماً بمقدار النفوذ الشخصي الذي يتمتع به الشيلابي حتى في برقة ، فقد سارع بالموافقة على الفكرة . وفي يوليه ١٨٣١ سافر الشيلابي قاصداً برقة ، تاركاً على رئاسة الوزارة — كما هي العادة — الوزير الثاني إبراهيم بومّيس . وهكذا أصبح يوسف باشا بدون الشخص الذي كان وحده ، في تلك الظروف الحرجة ، القادر على مجابهة الموقف ، وقيادة السفينة إلى شاطىء الأمان فينقـذ الولاية من الدمار[1] .

(١) نسخ من رسائل قنصلي سردينيا وتوسكانا ، E. Rovard de Card; Traites de la France avec les pays de l'Afrique du Nord (Algerie,Tunisie, Tripolitaine, Maroc) Paris Pedone 1906

احمد القليبي : « جليس الاديب » (المؤلف) .

الفصل الثالث

ثورة عبد الجليل سيف النصر[1]

لم يمض وقت كثير حتى أصبح ما كان الشيلابي يتوقع حدوثه حقيقة واقعة ، فإن عبد الجليل سيف النصر بعد أن اتحد مع ورفلة وما يجاورها

(١) مهما ضعف سلطان الدولة وارتبك شانها فان الثورة على سلطانها في ظروف كالتي كانت الجماهير الليبية تعيشها انذاك من حالة جهل شامل ، وفقر مدقع وحكم مستبد قاس يلجأ الى العنف والوحشية لاتفه الاسباب لا يمكن أن تحدث وان توافرت جميع الدوافع لها الا اذا وجد لها القائد الثوري الذي يلهب الحماس ويبث الأمل ويوحد الصفوف ويدفع بالجماهير الى مقابلة الاستبداد بالتمرد عليه والعنف بالثورة والقسوة والوحشية بما هو اشد منها .

وهذا القائد الثوري الذي تحتاجه الثورة لتحدث لا بد وأن يكون مدفوعا من ذاته بدافع شخصي هو اقوى مما تتعرض له الجماهير من عنت كأن يكون على مستوى من الادراك وقوة الاحساس يفوق ما لدى عامة الشعب وخاصته . أو أن يكون في ذاته منطويا على حقد دفين يسيطر على فكره ويدفعه لما اندفع فيه دفعا لا حدود له . أو يكون ذا طموح وآمال عريضة . وفي جميع الحالات لا بد وان يكون جريئا مقداما ليستطيع اعلانها الى جانب سداد في الفكر وقوة في الشخصية وقدرة على الاقناع ليستطيع القيادة .

وعبد الجليل سيف النصر الذي أعلن ثورته على الحكم القرمانلي قد اجتمعت له كل هذه الصفات والعوامل الذاتية الى جانب الظروف الموجبة للثورة :

فأباه الشيخ أحمد سيف النصر سيد قومه وشيخ قبيلته قد قتل في وحشية ومثل به في قسوة من قبل محمد بك القرمانلي ابن يوسف باشا : فقد حاول أحمد سيف النصر التعرض لقواته في عودتها من حملة تاديبية ضد أهالي برقة ولعل ذلك كان منه انتقاما وثورة على الخيانة التي أتاها محمد القرمانلي ضد شيوخ قبيلة الجوازي الذين دعاهم لوليمة ثم قضى عليهم في قصره جملة سنة ١٨١٠ / ١٨١١ . أو ربما كانت محاولته التعرض لقوات

من قبائل ، دخل إلى مدينة بن وليد في منتصف سنة ١٨٣١ دخول الفاتح المنتصر حيث نودي به في محضر من شيوخ ورفلة ، وقذاذفة سرت ، ومقارحة الشاطىء رئيساً لجميع مناطق ورفلة وسرت والشاطىء[1] .

وما إن تم له ذلك حتى سارع بارسال أخيه عمر سيف النصر على

= القرمانلي في منطقة سرت كانت لاعمال مثيرة ارتكبها رجاله فما كان من محمد بك القرمانلي بعد ان تغلب على قومه وشتت شملهم الا ان قتل شيخهم احمد سيف النصر وحز راسه وجاء به الى طرابلس على راس حربة يؤكد به نصره وقوته .

وعبد الجليل نفسه قبض عليه صغيرا ودون سن الرشد فيمن قبض عليهم واقتيدوا سبيا – على عادة اهل ذلك الزمن – فتربى في القصر خادما بين الامراء والحريم حيث قضى معظم ايام شبابه فعلم في حياته تلك من أمرهم ما خفي على الناس . عرفهم في مباذلهم والحلالهم ، وعرف عنهم عجزهم في ادارة شئون الولاية ، وعرف عنهم قصورهم وارتباكهم في وضعهم المالي ، وخبر اساليب دسائسهم وخياناتهم وغدرهم ، وعرف مكامن الضعف والقوة فيهم ، وخدم في صفوف جيشهم بعد أن اشتد عوده واستطاع أن يكسب ثقة سيده فيصبح قائدا مرموقا الى الحد الذي ركن اليه يوسف باشا فارسله على رأس حملة الى برنو لنجدة الشيخ محمد الامين الكانمي فخاض عديدا من المعارك حتى اخضع سكان تلك المناطق للشيخ الكانمي من جديد . وعاد محملا بالغنائم من المتاع والرقيق وفوق ذلك بسمعة القائد المظفر .

ولم يطل به المقام بين ذويه بعد عودته من تلك الحملة حتى بدأ يعمل من أجل الثورة . مدفوعا بحقد اسود على تلك الأسرة وحكمها البغيض حاملا بين جنبيه نفسا موتورة تطلب الثأر لأبيها ممن قتلوه ومثلوا به ، ولذاتها من هوان وذل أرغمت عليه في مستهل حياتها ، وقد خبر القيادة ومارسها وبرز فيها .

والشعب الليبي الذي عانى من قسوة الحكم ، وشدة الظلم خلقت فيه روح التذمر والدافعة التمرد على ارادة الاسرة القرمانلية وتذمر لما فرض عليه من ضرائب اضافية باهظة كانت تجمع منه لسداد ديون انفقها الباشا على شهواته ومباذله ثم تصرف هي ذاتها تبذيرا جديدا في غير الامر الذي جمعت له لذلك ما ان سمع الدعوة حتى استجاب ناسيا حزازاته نابذا عصبياته وعنصريته من أجل أمله في أن يحيا من غير أن يهدده جباة القرمانليين في قوت يومه ومعاش بنيه .

عمل عبد الجليل على مصالحة القبائل فاتحدت ودعاها للثورة فسلمته قيادها وارتضته زعيما لثورتها تلك . (مترجم) .

(١) رواية احمد بك النائب لهذه الحادثة (الثورة) كما يلي :

« وفي سنة ست واربعين انتقض عبد الجليل بن غيث بن سيف النصر ، ولحق بنواحي اورفلة والتف به من كان بتلك الضواحي من أجلاف العرب وكل ناعق ممن يلتمس الرزق بسلاحه ، واظهروا العصيان .

وان عبد الجليل بن غيث هذا من سراة قومه اولاد سليمان وكانت مواطنهم بضواحي سرت وقد تقدم ذكر انتقاض ابيه غيث والفتك به والقبض على عبد الجليل هذا فنشأ في

رأس ثمانمائة فارس لاحتلال فزان . ولما لم يكن الباي محمد بن عبد الله[1] حاكم فزان من قبل القرمانليين بقادر على حماية المنطقة فقد انسحب إلى حصن مرزق وتحصن برجاله فيه ، ومات به بعد قليل ، ولا نعلم ما إذا كانت وفاته بسبب المرض أو أنها نتيجة لمؤامرة اغتيال . ولكن ابنه أحمد الذي آزره جيش أبيه لم يتخل عن المقاومة عن الحصن مؤملاً في النجدة من طرابلس[2] .

وكانت أخبار احتلال فزان صدمة قوية ليوسف باشا لم يحتملها ، فهو لا يستطيع أن يستكين لفقدان أرض واسعة كان يحصل منها على ضرائب وفيرة ، وله فيها امتيازات هامة ، وخاصة تجارة الرقيق ، وعن طريقها كان يحافظ على استمرار صلاته بسلاطين السودان ومن جانب آخر فإنه لا يمكنه قبول تلك المذلة التي لحقت به من غير أن يخلف سابقة خطيرة قد ينتهجها مشائخ آخرون ذوو طموح في أنحاء أخرى من البلاد[3] .

جو عناية يوسف باشا وتحت كنفه واصطناعه واختلط بأبنائه على احسن الوجوه من التربية . وكان جموحا للرياسة ، طامحا للاستبداد كما قيل .

(اذا كان الطباع طباع سوء　　　فلا ادب يفيد ولا اديب)

فلما قفل من برنو كما تقدم جرى في شأو رياسته طلقا فحدثته نفسه بالاستبداد وأجمع على الانتقاض ، وأعلن في هذه السنة بضواحي أورفله النفاق ، وانضم اليه من كان بتلك القاصية من جفاة الأعراب . وصغت آذانهم لناعق فتنة ، ونهض فيمن معه وقدم بلد سوكنه وتبوأها ثم انتزى على بلد مرزق » . (مترجم) .

١) محمد بن عبدالله الجركسي باي فزان لم استطع معرفة التاريخ الذي تولى فيه ادارة فزان كخلف لمحمد المكني الذي حكم فزان مدة من الزمن قبله . (مترجم) .

٢) وبالرغم من الاحداث التي كانت – انذاك – تستدعي من حكومة الباشا عملا حاسما في سرعة فان اعداد حملة لم يتم حتى وردت الاخبار بتوجه عمر الى سوكنه واحتلالها والاتجاه الى فزان (١٣ سبتمبر) وحصاره للباي محمد فيمن معه بقصر مرزق (٢٠ سبتمبر) . (مترجم) .

(٣) يلاحظ المطلع على تاريخ ليبيا في عهد هذه الاسرة كثرة محاولات التمرد وتتابعها وفي عهد يوسف وحده فيما رواه النائب في المنهل العذب حدث خروج الشيخ عبد الوافي في غريان سنة ١٢١٨ (١٨٠٢) ومحاولة الامريكان تأليب اخيه مع اهالي برقة عليه سنة ١٢٢٠ (١٨٠٤) . وخروج الشيخ احمد سيف النصر في سرت ، والجوازي في برقة ١٢٢١ (١٨٠٥)

كانت مغامرة عبدالجليل قد أساءت كذلك إلى وجهاء طرابلس لما لهم من المصالح في السودان لا سيما وأنه قد شاع أن عبدالجليل قد استولى خلال غزوه لفزان على ثلاث قوافل كبيرة كانت قادمة من كانم ، ومن كاوار ، ومن ودّاي كانت تضم فيما تضم ستمائة من العبيد عدا البضائع[1] .

جمع يوسف باشا ، في سرعـــة ، مستشاريه وأكبر أبنائه علي باي (الأمير ولي العهد) ، وسيدي إبراهيم ؛ فأعرب لهم عن استيـائه الشديد مما حدث وأعلن عن عزمه الثابت على معاقبة عبدالجليل وأنصـاره على تحديه لسلطانه مهما كانت النتائج[2] .

وافق المجتمعون على رأي الباشا وقرروا تكوين حملتين بقيادة علي باي ، وإبراهيم باي :

وخروج اهل غدامس سنة ١٢٢٥ (١٨١٠) وانتقاض ابنه محمد عليه (١٨١٥ / ١٨١٦) وخروج محمد الشريف حاكم فزان عليه سنة ١٢٢٧ وخرجت قبائل نالوت على عماله (بني ثوير) سنة ١٢٣١ وخروج الجبل الغربي سنة ١٢٤٢ وثورة عبد الصمد بن سلطان في ترهونة في سنة ١٢٤٥ ولذلك فان الباحث يحار في تعليل اهتمام يوسف باشا بأمر عبد الجليل هذا فيحاول التعليل بالضغط الواقع على يوسف من قناصل الدول ، وبأن عبد الجليل كان اكثر من ثائر عادي فهو تربية القصر ، وقائد جند وطالب ثأر موتور وبان يوسف قد طعن في مصدر قوته الباقية لديه في فزان والتجارة مع السودان وبغير هذه الامور مما هو اقل شأنا منها وقد تكون هذه في مجموعها أسبابا دافعة به الى الاهتمام الزائد بأمر ثورة سيف النصر هذا . (مترجم) .

(١) وليوقف سرعة العدوى وانتشار فكرة الثورة اوفد فيما يقول ميكاكي بابنيه عمورة وعلي الى مصراتة وغريان ليعملا على استتباب الامن من غير اللجوء الى استخدام القوة في ذلـك . وبينما عاد علي باي بعد بضعة أيام من غريان وفي صحبته عدد من الرهائن من ابناء المنطقة أوجد عمورة لحدة طبعه وشراسته روحا من التذمر والشكوى بين السكان مما حمل والده على استدعائه بسرعة مـن مصراتة ليرسل بدلا منه لتهدئة الخواطر محمد المكني حاكم فزان السابق الذي بالرغم من تقدم السن به فانه كان ولا يزال محتفظا بكثير مـن الحيوية والنشـاط . (مترجم) .

(٢) وكان القنصل الانجليزي وارنجتون فيما يقول ميكاكي ايضا قد عرض على الباشا وساطته لتسوية الامر ، وحمل عبد الجليل على التراجع عن تمرده . غير أن الباشا وقد رأى في التدخل الاجنبي لتسوية الموضوع ما يضعف من سلطانه ، ويقلل من هيبته ، رفض الوساطة رفضا باتا وأباها كلية . (مترجم) .

المحلة الأولى : يكوّنها قول أغلية المنشية والساحل والزاوية .

والمحلة الثانية : من قول أغلية وأهالي المقاطعة الشرقية (مصراتة ، زليتن ، الخمس ، و ... الخ) .

وكلف أمين الخزانة الحاج سليمان القرباع بتمويل وإعداد المحلتين .

لم يرتح رجال القول أغلية إلى هذا فقد كان موسم الحرث يقترب ، وهم لا يودون أن يتخلوا عن الزراعة ، غير أن يوسف باشا رفض أن يستمع إلى الاعتراضات مؤملاً في أن ضخامة الحملة ستنجز المسألة وتقضي سريعاً على ثورة عبد الجليل وهـذا سيمكن المجندين من العودة في وقت يسمح لهم بالزراعة قبل انقضاء الموسم .

أنجزت الترتيبات ، وأعدت (المحلتان)[1] ، فسافرت أولاً محلة إبراهيم باي ، وبعد أسبوع لحقت بها المحلة الثانيـــة التي قادها علي باي (٢٠ اكتوبر)[2] بعد أن أصدر يوسف باشا أمراً يقضي بمنع زراعـة أراضي رجال « المحلة المنصورة » الذين أُرسلوا لمعاقبة عصاة ورفلة على من لا يملك حقاً شرعياً في زراعتها .

انضمت المحلتان إلى بعضهما في « تم ساتن » Tam sáten (منطقة ترهونة) ومن هناك اندمجتا في جيش واحد تقدم زاحفاً على بن وليد .

حدث أول اصطدام بالعدو على بعد ميلين من بلدة بن وليد في المكان المعروف بقليعة الحطابة[3] ، وكان عبد الجليل قد علم بأن محلة الباشا قد عسكرت لقضاء الليل بذلك المكان فقرر مهاجمتها وأعطى أوامره بمداهمتها

---

(١) المحلة تعبير شعبي يعني الفرقة والجيش والسرية (الوحدة العسكرية الكبرى) ، ويعني ايضا الحي او المنطقة من مدينة معينة . (مترجم) .

(٢) يختلف ميكاكي مع المؤلف في تعيين تاريخ مغادرة المحلة الثانية لمدينة طرابلس فيجعلها في ٢٩ اكتوبر ، ويقول عن المحلة الاولى انها غادرت في العاشر من اكتوبر . (مترجم) .

(٣) قليعة تصغير للقلعة ، والحطابة « جامعو الحطب » . (مترجم) .

في جوف الليل ، فاندفعت قواته للهجوم ، وكانت حوالي ستة آلاف رجل مسلح من أولاد سليمان ، وورفلة ، والقذاذفة ؛ ولكن قوات العدو (قوات الباشا) وكان قوامها عشرون ألف رجل ما بين قول أغلية وأهالي جميع المناطق الساحلية ، ومن جنود نظاميين ، ومن عبيد ، كانت مستعدة للقائه ، ومدفعيتها جاهزة للضرب . فبدأت معركة حامية ، وبعد ثلاث ساعات من القتال رد رجال عبد الجليل على أعقابهم منهزمين بعد أن تركوا وراءهم بساحة القتال الكثيرين من القتلى من الرجال ومن النساء بينما لم يفقد القرمانليون سوى أحد عشر رجلا[1] .

زحفت محلة القرمانليين حتى ظهرة[2] الشيخ السوداني بينما رابطت قوات عبد الجليل في السرار في خطين سمّي أولهما باسم معقل بن قايد[3] وبن قايد هو اسم المنطقة التي وجد بها وسمي الخط الثاني باسم معقل السرار .

ومع الصباح الباكر هاجم الأميران بقواتها العدو (الثوار) المرابط بالخط الأول ، وبعد قليل تمكنوا من مهاجمة الخط الثاني حيث اشتد النضال وحمي وتمكن خلاله القرمانليون من احتلال أهم المواقع ثلاث مرات وفقدوها في كل مرة ، وفي ساعة الغروب أوقف القتال بتدخل

---

(1) يلاحظ هنا اننا نترجم عن أصل ، وهذا الاصل انما يقدم رواية جانب واحد من الفريقين هو الجانب القرمانلي الذي يجد في نفسه ممثلا للعهد القائم وهو مع كل أسف غير أمين في روايته حينما يورد اعداد القتلى من الاعداء (الثوار) شأنه في ذلك شأن أية سلطة في أي زمن تقلل من خسائرها وتهول في خسائر الجانب المقابل فرارا من ذكر الحقيقة لاثبات البطولة والتفوق المعنوي وهو أمر مفهوم بداهة وسنرى هذه الأحصائيات الخاطئة عن قصد في عدد من الاماكن من الكتاب ويجب أن نقبلها بتحفظ شديد كحقائق تاريخية . (مترجم).

(2) الظهرة من الارض الأكمة الصغيرة او الربوة في الاصطلاح الشعبي . (مترجم) .

(3) معقل في الاصطلاح الشعبي يعني خط الدفاع أو الرباط وأصل التسمية فيما يبدو لي هو ان المرابطين بالخط كانوا يتسترون (يعقلوا) وراء حاجز أو شيء يقيهم رصاص الأعداء واستبعد بهذا ان يكون المعقل من العقال وهو ربط الرجل ركبته بحبل ليمنع نفسه من الفرار كما عرف عن الفرس والروم في معاركهم . (مترجم) .

أولاد بو سيف الذين رفعوا بين الفريقين الرايات البيضاء . وقد فقد القرمانليون في ذلك اليوم ١٤٠ قتيلا ، وأكثر من ثلاثمائة جريح ، كما فقدت قوات عبد الجليل حوالي الثمانين ما بين رجل وامرأة[1] .

وبوساطة أولاد بو سيف قدمت للأميرين القرمانليين العروض التالية : سيتخلى عبد الجليل عن أراضي فزان ، وسيعيد الغنائم التي استولى عليها ، وسيقدم للباشا هدية من ألف رأس من الإبل ، وسيقدم سبع رهائن يختارون من بين شيوخ قبيلته بينهم ابن عمه (الساعدي) ، ويطلب عبد الجليل من الباشا كمقابل لهذا : الاعتراف به سيداً مطلقاً على منطقة ورفلة .

ولما كانت الذخيرة قد بدأت تتناقص عند الأميرين القرمانليين ، ومن يوم إلى آخر بدأ التذمر يزداد بين قواتها ، فلم يبديا مقاومة كبيرة قبلا بعدها شروط المصالحة واكتفيا بأن طلبا مهلة قصيرة من الزمن يتصلان فيها بوالدهما في طرابلس للحصول على موافقته . غير أن يوسف باشا الذي كان مقتنعاً بأن عبد الجليل لن يتخلى أبداً عن فزان لم يقبل بهذه الشروط وأمدّ جيشه بما يحتاجه من ذخيرة وأمر ابنيه بمواصلة القتال حتى يجبرا عبد الجليل على التخلي عن البلاد . وهكذا استؤنف القتال .

كان البادىء بالعدوان قوات القرمانليين فقد أمر إبنا الباشا قواتها بتدمير المباني واقتلاع الأشجار على امتداد الوادي فاضطر عبد الجليل إلى النزول بقواته إلى الميدان ومهاجمة القوات المعادية في عنف وقسوة بالقرب من قصر القاعد . كان الهجوم قوياً عنيفاً حتى أن القرمانلية أوشكت على أن تصاب بهزيمة نكراء لولا استماتة قول أغلية الساحل والمنشية ، ونزول

---

(1) ليس مصدر هذه الرواية فيما يبدو قرمانليا اذ من المستحيل أن يوردوا في روايتهم مثل هذه الارقام ونظرة الى الوثيقة التي سيوردها الكاتب بعد قليل تؤكد هذا الذي ذهبت اليه . (مترجم) .

الأميرين بشخصيها إلى الميدان ، وبفضل صمود مقاتلي مصراتة ، والجند النظامي ، وعبيد الباشا زال خطر الهزيمة في النهاية . وقد مات في ذلك اليوم من القرمانليين أكثر من ستين قتيلاً ، من بينهم ابن الشيخ بالقاسم المنتصر ، وابن منصور بن إبراهيم الأدغم ، والحاج أحمد بن عبدالصمد بن سلطان الترهوني ، كما أصيب إبراهيم بجراح طفيفة ، وماتت فرس علي باي تحته .

بعد هذه المعركة جـــدد أولاد بوسيف وساطتهم من أجل الصلح (بنفس العروض السابقة) فلم يتردد الأميران كثيراً في قبولها ، ونصحا أباهما بقبولها بدون تردد بالنظر لوضع المحلة الشائك .

رفض يوسف باشا تصديق كلام ابنيه فيما يتعلق بحالة الجند السيئة ، واعتبر عروض الصلح واحـدة من مناورات عبد الجليل لإنهاك قوات الولاية ، ولكنه عاد في النهاية فاضطر مرغماً إلى قبولها حافظاً في نفسه حقداً أسود لأولاد بوسيف الذين تدخلوا للحيلولة دون إنزال الهزيمـة الساحقة بقوات عبد الجليل .

كتب بتاريخ ١٢ ديسمبر ١٨٣١ إلى وزيره الشيلابي في بنغازي يقول : « في الحقيقة ما تم[١] أعدا[ء][٢] للسلطنة وللعمالة[٣] إلا المرابطين[٤] ، لما الضايقو[ا][٥] ورفلة وشرقو[ا][٦] وكثرت فيهم الموت ، وردوا يشفعوا[٧] ،

---

(١) « ما تم » لفظة شعبية دارجة بمعنى « ليس » . (مترجم) .
(٢) في الأصل بدون همزة وقد أضفناها من عندنا . (مترجم) .
(٣) يقصد بالسلطنة والعمالة الولاية والمناطق الادارية بها . (مترجم) .
(٤) يقصد بالمرابطين هنا أولاد بوسيف كما سيتضح من النص الذي سيرد فيما بعد. (مترجم).
(٥) يقصد ضاقت بهم السبل أو ضيق عليهم . والتعبير في اللغة العامية . (مترجم) .
(٦) اهملت الألف في الأصل فأضفناها . ويريد بشرقوا ارتبكوا وفقدوا الامل أو أنه يريد به انهم لما سدت السبل في وجههم . (مترجم) .
(٧) يقصد ورد المرابطون يشفعون . (مترجم) .

والقتل فيهم[١] ، وقريب[٢] يتاخذ ... الخ »[٣] .

ومراعاة لشروط الصلح فقد انسحب الأميران بعسكرهما بعيداً عن الوادي في انتظار تنفيذ عبد الجليل لالتزاماته التي تعهد بها . غير أن هذا كان قليل التمسك بوعوده ، فبعدما سلمهم فقط عدداً محدوداً من الإبل وقليلاً من الغنائم شرع يماطل ويسوف مطالباً باعفائه من بقية الالتزامات .

وفيما يلي الوثائق الهامة المتعلقة بالموضوع :

أولاً : رسالة من يوسف باشا إلى محمـد الشيلابي بتاريخ ٦ رجب ١٢٤٧ (١٢ ديسمبر ١٨٣١)[٤] .

« الحمد لله ، وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وآله وصحبه وسلم » .

« إلى الأجل الأفضل الوجيه الأقبل ، المحترم المبجل ولدنا الحاج محمد بيت المال ، أصلح الله له الحال والمآل بمنه آمين » .

« السلام الأتم الأطيب الأعم عليكم ورحمة الله وبركاته » .

« ولا زايد[٥] سوى الخير[٦] ؛ يليه إعلامكم : موجب الكتب[٧] إليكم ،

---

(١) الضمير في فيهم يعود الى ورفلة . (مترجم) .
(٢) ونطقها « قريب » برفع القاف ونصب الراء وتشديد الياء مع الكسر وتعني في اللغة العامية كادوا أن كما هي هنا وتعني كذلك عما قريب وايضا قريبا . (مترجم) .
(٣) وهي فقرة من رسالة أوردت المجلة التي نشرت المقال صورة لها بالزنكغراف وسترد كاملة بعد قليل في أصل المقال وعنايتنا بها هنا لاعطاء صورة عن مدى انحطاط المستوى الثقافي في عهد يوسف باشا القرمانلي الذي نؤرخ له . (مترجم) .
(٤) ننقل هذه الرسالة عن أصلها العربي المنشور بالزنكغراف في المجلة . ومن الواضح الذي لا يخفى على القارىء أن القواطع والفواصل في الرسالة ليست من الأصل فان الرسائل آنذاك كانت متصلة من ألفها الى يائها . (مترجم) .
(٥) بقلب الهمزة في زائد ياء على حسب المنطوق العامي . والمقصود بها هنا « لا جديد » . (مترجم) .
(٦) جملة يبدو أنهم درجوا في ذلك العهد على استهلال الخطاب بها ، مهما كانت الأخبار التي يضمنونها الرسالة ، ولعلهم يقصدون بها طمأنة القارىء ، أو أنها جملة فقدت معناها الذاتي ؟ (مترجم) .
(٧) هكذا في الأصل وصوابها « الكتابة » . (مترجم) .

...مو أننا كنا عرّفناكم ، سابقاً ، على تجهيز الأمحـــال[1] المنصورات[2] ، ...فيهم[3] الأسعدين الأرشدين أنجالنا[4] سيدي علي باي ، وسيّدي إبراهيم ...باي ، وبيّنا لكم عدد العساكر والرحال[5] . والآن نعرفوكم[6] بمـا حل ...أهل وادي بن وليد ومن في حزبهم من أولاد سليمان والقذاذفة وغيرهم » :

« أول واقعة وقعت عليهم[7] ، لما نزلت المحلة بقليعات الحطابة ، في ...سفل الوادي ، قبـــل لا تبلغ لهم[8] ، سولت لهم أنفسهم الخبيثة ، ...تجرّدو(ا)[9] عن وافي هم[10] : سَيبيب[11] ، وتَريس[12]، وهجمو(ا) على ...المحلة في الليل ، فوجدو(ا) الناس على أهبة ، والمدافع[13] في كل ترعة[14]،

---

(١) الأمحال جمع محلة ، وقد سبق شرح مدلولها في اللغة العامية ، والمنصورات طريقة درجوا عليها في وصف الحملات العسكرية الرسمية سواء أكانت قد انتصرت أو أنها لم تبدأ عملها بعد كما هي الحال هنا . (مترجم) .

فيهم هذه يقصد بها « بينها » والتعبير دارج في اللغة العامية . (مترجم) .

يقصد نجلانا والتعبير على هذه الصورة في اللغة العامية . (مترجم) .

هكذا في الأصل بالحاء ولعله خطأ الكاتب والمقصود بها « الرجال » فان لم يكن فلعلها جمع « رحل » وهي في اللغة العامية المجموعة من الابل او الفرسان في حالة السفر والرحل في العربية ما يحمله البعير على ظهره من أثاث ومتاع . (مترجم) .

هكذا في الأصل وهو لا غبار عليه في اللغة العامية الدارجة ولكنه في العربية نعرفكم . (مترجم) .

وقعت عليهم تعبير عامي المراد به نزلت بهم . (مترجم) .

تعبير سليم في اللغة العامية ويقصد به في العربية الفصحى « وقبل ان تصل اليهم » او « ... تصلهم » . (مترجم) .

ترك الالف في الأصل فأضفته وهو خطأ تكرر من كاتب الرسالة في عدة مواضع وليس في جميعها كما سترى . (مترجم) .

هكذا في الأصل ولا معنى لها بهذا الرسم ولعل الكاتب كان يقصد « عن وافيهم » وهي في اللغة الفصحى تعنى « عن جميعهم » أو « عن بكرة أبيهم » . (مترجم) .

السيبيب في اللغة العامية يعني « الخيل » و « الفرسان » وأصلها في العربية كما في العامية شعر الفرس ومن هنا جاءت التسمية في العامية على ما يبدو . (مترجم) .

تريس واحدها في العامية « تراس » وتعني الرجل وفي الجيش المشاة . (مترجم) .

يقول ميكاكي ان عددها كان ستة عشر مدفعا . (مترجم) .

كلمة تعني في العامية « فجوة » او « جانب » . (مترجم) .

وبقي البارود والمدافع ينوضوا[1] مقدار ثلاثة ساعـــة[2] ، وانهزموا مفبوضين[3] ، ومات منهم بالدريلي[4] والرصاص : ما يزيد على المائة وخمسين رقبة[5] ، وسلمت المحلة ، ولم يمت رجل واحد ، ولله الحمد[6] على ذلك » .

« وصبيحة الباكرة ، رحلت المحلة ، ونزلت بقرب ظهرة الشيخ السوداني ، لأن ورفلة كلهم[7] عقلوا[8] في سرار البرانيين[9] والأوطيين[10] . وداهمتهم العساكر في معقل سرار وبن قايد ، و(ا) ما معقل بن قايد وما يليـه أخذوه في أسرع مدة ، وقتلو(ا) من فيـه ؛ وركحت[11] العركة[12] في معقـــل سرار ، وحمى الوطيس ، وطلعوهم[13] منه ثلاثة مرات ، ويرجعو(ا)[14] له . حتى أن أنجالنا باشروا القتال بأنفسهم ، وجرح حصان

---

(١) ينوض بشدة على الواو مع الكسر لفظة شعبية تعني « ينفجر » او « ينطلق » ، والجمع فيها للدلالة على المدافع كما هو واضح . (مترجم) .

(٢) هكذا في الأصل والتعبير خطأ حتى في العامية وصوابه « ساعات » . (مترجم) .

(٣) الكلمة مقلوب « مبغوض » ولا نعرف لها معنى غيره . (مترجم) .

(٤) كلمة لم أفهم معنى لها ولعلها من التعبيرات التركية لنوع من السلاح أو الآلات الحربية وقد اثبتها على رسمها أمانة في النقل . (مترجم) .

(٥) أي نسمة . (مترجم) .

(٦) راجع هامش (١) من صفحة ٥٠ فان المؤلف يذكر ان عدد القتلى كان احد عشر قتيلا . (مترجم) .

(٧) عاد بالضمير على الجماعة وبهذا التعبير يصبح المدلول في العربيـة الفصحى « رجال ورفلة كلهم » (مترجم) .

(٨) عقلوا بشدة مع الفتح على القاف تعني رابطوا او استعدوا في خط دفاعي وقد تقدم حديث في هذا . (مترجم) .

(٩) البرانيين تعني الذين بالخارج او الأجانب الذين لا صلة لهم بمن يتحدث عنهم ولكنها هنا ذات معنى جغرافي وتعني الذين يسكنون اعالي الوادي . (مترجم) .

(١٠) الاوطيين سكان اسفل الوادي . (مترجم) .

(١١) ركحت أي استقرت وثبتت ، والمقصود به هنا استمرت في ذات الموقع او المكان . (مترجم) .

(١٢) العركة هنا بمعنى المعركة (مترجم) .

(١٣) طلعوهم منه اي اخرجوهم منه (مترجم) .

(١٤) يرجعوا له اي يستردونه من قوات القرمانليين . (مترجم) .

سيدي علي ، والجرح سيدي إبراهيم جرح خفيف[1] ،

ولهدو(ا)[2] أولاد أبي سيف ، وطلبو(ا) من الجالنــا العفو واحازت[3] العركة » .

« مات منهم في ذلك اليوم : مايتين وخمسين رقبة ، وأما المجاريح بلا حساب ، والخيل كذلك » .

« وبقوا يلشفعوا[4] ، وشرعو(ا) العساكر في تقطيع الأشجار ، وتهديم الديار ، من البلادن[5] إلى دفع الوادي : لا قعدت زيتونة ، ولا نخلة ولا حوش[6] قايم البنـاء . ثم رحلت المحلة فنزلت ظهرت[7] التربة ، وعاركتهم عركة أخرى في وسط الوادي ، وانفبظوا[8] ورفلة إلى أن رقوا إلى سرار ، ومات منهم مايتين واثني عشر رقبة[9] ، وثلاثة مـاية مجاريح وزاد في التضييع[10] . فقدموا علينا المرابطين[11] : أولاد أبي سيف ،

---

(١) يقصد بالجرح البناء للمجهول «جرح» و «جرح خفيف» هكذا في الاصل وهو خطأ من حيث الاعراب وصوابه « جرحا خفيفا » . (مترجم) .

(٢) لهدوا اولاد ابي سيف اي ركضوا بين الفريقين والتعبير في العامية سليم ولكنه في العربية غير ذلك كما هو واضح (مترجم) .

(٣) احترت او انحزت اي اوقفت وانتهت . (مترجم) .

(٤) يلشفع في العامية ذات معنى يغاير يشفع في العامية والفصحي على السواء فهي تعني يتحسر ويتأوه او يندم حيث لا ينفع الندم كما هي هنا . (مترجم) .

(٥) النون في البلاد زائدة جاء الكاتب بها للترنم والمقصود بالبلاد البلدة بن وليد . (مترجم) .

(٦) حوش في العامية تعني المنزل ذي الطابق الواحد . (مترجم) .

(٧) هكذا في الاصل والرسم الاصوب « ظهرة » كما في « ظهرة الشيخ السوداني » التي وردت فيما مضى من الرسالة . (مترجم) .

(٨) كلمة لا افهم لها معنى فقد احتملت ان تكون مقلوب « انبفضوا » ومعناها في الفصحى اصابهم الحزن والاسف لفشلهم في مسعاهم ولكن المعنى لا يتضح بهذا كما انها تعبير غير مالوف في العامية وبحسب سياق الحديث فان معناها يجب ان يكون اندحروا او ردوا على اعقابهم . (مترجم)

(٩) يبدو ان الكاتب يذهب في التذكير والتأنيث للعدد الى المعنى لا الى اللفظ فهو يريد بالرقبة (النسمة) الرجل والا فقد كان الصواب أن يقول واثنتي عشرة رقبة. (مترجم).

(١٠) يقصد بالعبارة « وزاد في التضييع » ــ واكثر في عدد من ضاعوا لما اصابتهم من جراح أي ان عدد المجاريح كان اكثر من الثلاثمائة . (مترجم)

(١١) التعبير في العامية سليم ففيها لا يتغير لفظ المرابطين في حالة الرفع الى « المرابطون » ولعل هذا ما لاحظه العلامة ابن خلدون واشار اليه في مقدمته حينما استبعد قوانين النحاة مع صحة الدلالة . (مترجم) .

وأولاد بن مريم ، وزوى غريان[1] ، وطاحوا علينا[2] ، وطلبو(ا) منا العفو والصفح ، ورفع القتال ، وحقن دماء المسلمين . فاستجبنا لما طلبو(ا) منا ، وعفونا ، وراعينا الضعفاء والمساكين ، بعد أن التزم لنا عبد الجليل ومشايخ ورفلة على يدي أولاد أبي سيف ، بألف وخمسة ماية ناقة ، وماية وخمسين رأس عبد[3] ، وجابو(ا) لنـا عشرين رهينة من خيار أولاد المشايخ ، وعبد الجليل أعطى الساعدي ، وابنه ، وأخيـه عمر لولا أنه مجروح عاطيه ؛ والرهاين الآن في قيطون[4] الباي ، ويبغوا يشرعوا في الخلاص[5] . »

« والتزموا برجوع[6] جميع ما أخذوه من فزان بتمامه . وظمّنونا[7] أولاد أبي سيف في إتمام هذه الشروط . »

وأما الباي محمد شركز فإنه مات مريضاً وولده أحمد ومن معه باقي في القصر[8] ، وعن قريب يقدم إن شاء الله ، على أيسر حال ، بجميع

---

(١) لا اعرف ما اذا كان المقصود بلفظ زوى غريان هذه جمع زاوية، أي أهل زوايا غريان او ان المقصود بها بطن او عائلة من غريان ذاتها ، او جماعة تحمل هذا الاسم وتتسمى به كانت تسكن عزيان . وأعرف الان ان في برقة من جهة الجنوب الغربي قبيلة تحمل اسم زوية وهي ايضا من المرابطين ولكنها ليست من مرابطي البركة الذين يقومون عادة بمحاولات الصلح بين القبائل المتقاتلة . (مترجم) .

(٢) لفظة عامية او تعبير يعني جاءونا متذللين مؤملين فينا خيرا . (مترجم) .

(٣) تعبير غريب في وقتنا الحاضر عن الرقيق بالرؤوس وهو في العامية لا يطلق الا في تعداد قطعان الحيوانات ولكننا اذا نظرنا الى ما كان سائدا في ذلك العصر من نظرة الى ان النفوس البشرية المسترقة كانت سلعة تقدر كأية ممتلكات بعدد الاشخاص ادركنا سلامة التعبير ، ويجب ان لا ينظر الى هذا الامر على انه سبة وعار خاص بنا نحن الليبيين وحدنا فقد كانت تشاركنا فيه وبصور لا انسانية جميع دول العالم وشعوبه حتى نهاية القرن الثامن عشر بل واواسط القرن التاسع عشر . (مترجم) .

(٤) القيطون خيمة من القطن أو الكتان تضرب في السفر للراحة . (مترجم) .

(٥) الخلاص هنا بمعنى الدفع وهي لفظة عامية . اما يبغوا فبمعنى يريدون او يزمعون. (مترجم)

(٦) يقصد بترجيع أي أعـادة . (مترجم) .

(٧) هكذا في الاصل والصواب ضمّنونا أي جعلوا من هؤلاء ضامنا لنا على الايفاء بالالتزام. (مترجم).

(٨) بمرزق (المؤلف) .

ما عنده ، ولا يفير عليه أي بشر يكون . »

« ذلك في علمكم ، وإن شاء الله ، بعدما يروحوا[1] الأمحال المنصورات من وادي بن وليد ، لبقوا[2] نجهزوا واحد(ا) من أمحالنا للوطن الشرقي[3] ، في محلة عظيمة ، تهد(ي)[4] الوطن ، وتواطي[5] بعض أنوف شمخت كما في علمكم . »

« وأنت ، لا بد تعرفنا على أصول أهل الوطن ، وما هم عليه ، جملة وتفصيلاً ؛ لتكونوا[6] على بصيرة . »

« وأما المحلة لم يمت منها إلا ماية وخمسين رقبة ، من كل نسبة[7] اثنين ، ثلاثة ، ما لهم بال[8] ولا فيهم متسميين[9] إلا محمد ولد الشيخ بلقاسم بن منتصر ، وولد منصور بن إبراهيم من عيلت[10] الأدغم ، والحاج أحمد بن سلطان[11] . »

« و ...[12] أهل المحلة من ورفلة مايتي فرس ، منهم ثمانين عند أهل

---

(1) يروحوا في العامية بمعنى يرجعوا او يؤوبوا . (مترجم) .
(2) كلمة تفيد بما بعدها ستعمل على تجهيز . (مترجم) .
(3) يقصد برقة (المؤلف) .
(4) تهدي اي تجعله يهدأ ، بمعنى تعيد الهدوء اليه . (مترجم) .
(5) تواطي تخفض او تنزل مــن .. (مترجم) .
(6) هكذا في الاصل والاصوب « لنكون » . (مترجم) .
(7) يريد من كل قبيلة او عائلة او بطن والتعبير في العامية غير مألوف . (مترجم) .
(8) اي لا شأن لهم ولا قيمة تميزهم بين ذويهم . (مترجم) .
(9) متسميين اي من ذوي الاسماء المرموقة او المشهورة . (مترجم) .
(10) عيلت بمعنى عائلة . (مترجم) .
(11) يضيف المؤلف في النص المترجم الى الايطالية من الرسالة امامه بين قوسين (من ترهونة) (مترجم) .
(12) كلمة لم امكن من قراءتها فقد تكون « خنبوا » بمعنى سرقوا ، وقد تكون « جبدوا » بمعنى « سحبوا » وقد تكون « جفلوا » بمعنى فقدوا او هربوا ولكن جميع هذه لا تعين معنــى مقصودا ومن مراجعة النص المترجم للمؤلف يتضح انه ترجم اللفظ على انها غنموا ولكن رسم الكلمة لا يعطي شيئا من هذا فهو يبدأ بـ « ج » او « خ » والنقطتان معا موجودتان في الاصل . ولكن اذا اخذنا بسياق الكلام فان ما ذهب اليه المؤلف حين الترجمة هو مــا اميل الى الاخذ به . (مترجم) .

الشرق[1] ، وتعلم أننا كنا كتبنا لك على عشرين ، وإلا ثلاثين قنطار سمن ، تبقى تهتم لنا منهم وترسلهم لنا عاجلاً ، في أول مركب ، وما أنت إلا ولدنا وأقرب ما لدينا ، وربنـــا يجيب تصرفات الجميع في الصواب ، والسلام .

المرعي بالله عبده

يوسف باشا القرمانلي

أيده الله آمين

بتاريخ ٦ من رجب ١٢٤٧هـ

(ملحق) الحاصل هي نقزة نقزوها[2] ورفلة ومن في لفهم ، وجت على روسهم[3] ، تكسروا تكسيرة كبيرة ، راحوا خايبين هم ؛ وسعيهم[4] كله راح ، وأما الغنم ما قعد[5] عندهم منها حتى شاة واحدة ، سلموا فيها أخيراً وأخذوها العساكر بتمامهـــا ، والإبل كذلك راحت : شيء أخذو(ه) الأصابعة ، والغنامية ، غير نوفل ابروحة أخذ ثلاثة ماية ناقة ، وشيء ضـــاع في العقل[6] ، وشيء ضاع عند المحلة ، ولا قعـد عندهم شيء .....[7] كبيرة ، وجميع رجالتهم[8] الذين تعرفهم ، الذي ما مات هو ، مات ولده ، وماتت فرسه ، والله ، غير من الطبول[9] خاصة سبعة وعشرين راجل أخيار ، ولا تاسل[10] . لكن في الحقيقة ما ثم أعداء

---

(1) يقصد اهل مصراته . (المؤلف) .
(2) نقزة نقزوها ، اي قفزة قفزوها ، او خطوة خطوها والمعنى انها مغامرة قاموا بها . (مترجم) .
(3) جت على روسهم اي جاءت القفزة على أم رأسهم وكانوا هم الخاسرين فيها . (مترجم) .
(4) السعي في اللغة العامية يطلق على المواشي والانعام . (مترجم) .
(5) ما قعد بمعنى « ما بقي » . (مترجم) .
(6) العقل فسرها المؤلف في الترجمة بانها صهاريج المياه ، واعتقد انا ان هناك خطأ في رسم الكلمة وانها «المعقل» اي الرباط حيثدارت المعركة التيتحدث عنها في الرسالة (مترجم) .
(7) كلمات لم نتمكن من التعرف عليها لقراءتها وقد ترجمها المؤلف بما معناه « انهم نفضوا من كل شيء » أي تعروا عن كل ما يملكون . (مترجم) .
(8) تعبير عامي يعني رجالاتهم . (مترجم) .
(9) احدى بطون ورفلة . (مترجم) .
(10) راجل بمعنى رجل ، وتاسل بمعنى تسأل . (مترجم) .

للسلطنة وللعيالة إلا المرابطين، لما انضايقو(ا) ورفلة، وشرقو(ا)، وكثرت فيهم الموت، وردوا يشفعوا والقتل فيهم، وقريب يتاخـــذ(1) المعقل لهدو(ا) المرابطين: أولاد أبي سيف، وأولاد بو لوشة، والصواعديه، والليابن، وبن حميدان وخوته، وأولاد الشيخ العـالم، وأولاد بن مريم كلهم؛ وبد(وا) يتربيطوا(2) على البيّات(3)، ويطلبوا في العفـو حق ساعدوهم، وأخذوا بخواطرهم وإلا لو(لا) المرابطين كانت حاجـة وقضاها الله، ولكن إرادة الله غلبت، وما يتزاد علينا بعد هـــذا الجواب؛ نعرفوك به مع قارباش. ونعلموك على القذاذفة راحو(ا) مال ورجـال، وكلوها وكلة طيبة(4) والسلام بتاريخ ما قبله». (نهاية الرسالة).

ثانياً، رسالة من يوسف باشا إلى ذات الشخص بتاريخ ٢٨ شعبـان ١٢٤٧ (٢ فبراير ١٨٣٢):

«الحمد لله، وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وآله وصحبه وسلم.»

«الأجل الأفضل، الوجيه الأقبل، المحترم المبجل، ولدنا الحاج محمد بيت المال، أصلح الله له الحال والمآل، بمنه وكرمه آمين».

«السلام الأتم، الأطيب الأعم، عليكم ورحمة الله وبركاته؛ ولا زايد سوى الخير. يليه إعلامكم(5): أنه ورد علينا جوابكم، وقرينـاه(6) من مبتداه إلى أقصى غايته ومنتهاه، وفهمنا مـا أفاده خطابكم على تفصيله وجميع ما شرحت صار في علمنا، وعرفنا بما أنت عليه من الخدمـة،

---

(1) الى هنا سبق وان اقتبست الفقرة. (مترجم).
(2) يتربيطوا اي يستغلون صفتهم هذه في الذي يقومون به من عمل. (مترجم).
(3) البيات جمع عامي للباي. (مترجم).
(4) كلوها وكلة طيبة اي اكلوها اكلة ستؤذبهم. (مترجم).
(5) لاحظ هنا انها نفس المقدمة التي في الرسالة السابقة. (مترجم).
(6) قراناه بقلب الهمزة ياء، وهي قاعدة عامة في العامية. (مترجم).

والوقوف على ساق الجد، فلم تمسك فترة ولا رخوة(1) في جميع ما يرد من المصالح إلى آخر ما ذكرت. بارك الله فيك، وهـذا المؤمل منك والمقطوع به عليك، مثلك من يصلح لهذا المقـام، ويهنى منه(2) ويمشي الأمور على ما هي(3). غير أنك اختصرت الكلام في الجواب، ولم تبين لنا أحوال الناس، وما هم عليه في الحال، وما تظن يقع منهم الاستقبال؛ فالذي هو مثلك، وفي منزلتك، لازم تعرفنا(4) بالحقيقة الدخلانية(5)، وتبين لنا كل شيء على التفصيل، لنكونوا على بصيرة من الأمر، فنحن كنا عرّفناك من جانب أهل وادي بن وليد، وما آل إليه أمرهم، وأن المرابطين طاحوا علينا، وعملنا الصلح على أيديهم، ووقع الدفع في البعض منه، ووقعت المراخاة(6)، وطال الأمر، وبطلت المحلة(7)؛ وتعرف حال المرابطين(8): اليوم، غدوة(9)، ونحن فات فينا(10) وأعطيناهم الكلمة(11). ثم لما طال الأمر، كتب عبد الجليل لقنصل الانجليز، وطلب منه أن يقدم عليه، فتكلم معنا القنصل، وطلب منـا أن يتوجه للوادي ويجيب عبد الجليل وإلا أخيـه، ويتمم الأمر، فساعدناه على ذلك، ونحسبوه(12) يقضي حاجة ويحصل المقصود. وتالي مروح(13) القنصل طاوي الحصيرة(14)

---

(1) تمسك فترة ولا رخوة لا يصيبك فتور ولا تراخ. (مترجم).
(2) من الهناء، وتعني أنك خير من يقوم فيريح منه. (مترجم).
(3) يمشي الأمور يسيرها في اتجاهها السليم. (مترجم).
(4) هكذا في الأصل بينما المفروض أن يقال يعرفنا... ويبين لنا حتى يتفق وما قبله. (مترجم).
(5) الدخلانية أي الخفية المستترة مما يحاك في السر. (مترجم).
(6) المراخاة — التراخي وعدم التنفيذ. (مترجم).
(7) بطلت المحلة — أصابها الانهاك والتعب لطول المرابطة. (مترجم).
(8) اي من حالهم في المماطلة والتسويف. (مترجم).
(9) غدوة — غدا. (مترجم).
(10) فات فينا — مضى منا أو سبق منا أن ... (مترجم).
(11) وعدناهم أو وافقنا على مطالبهم. (مترجم).
(12) نحسبه في الفصحى. (مترجم).
(13) وأخيرا رجع. (مترجم).
(14) طاوي الحصيرة مثل يضرب لمن لا يحصل على مراده، يقابله في العربية خاوي الوفاض. (مترجم).

من جانب عبد الجليل ، ولا حصل منـــه على طايل ، غير الجوابات القارغات[1] . وفزان لا هو مخليها ولا بقى يسمح بيها[2] . ونحن جزمنا على تجهيز الأجل ، المحترم ، ولدنا الباي محمد المكني ، في قوم غليظة[3] من المحلة ، يتوجه بها لفزان ، وحتى السباعة ، والزنتان ، والرجبـان ، ومن في معناهم ناشطين وستوبنين[4] . ويبغوا يمشوا لفزان ، ويلاقوا المكني في الشاطيء[5] لأن القصر قاعد بيه ولد الباي محمد ، والحاج محمد ، والحاج إبراهيم المكني ، ومن معهم من الطرابلسية[6] ، ومصراتة ، وغـــيرهم . وكامشين على أرواحهم[7] ؛ وكذلك سعد بن ضو ، والحطمان ، ومن في عربهم كامشين على على أرواحهم حتى يجيهم المدد » .

« وأما غزي ورفلة[8] ، وأولاد سليمان الذين كانوا محاصرين القصر ، مشوا[9] لسبهة ، أما ورفلة والقذاذفة روحوا للوادي[10] . وأمـا أولاد سليمان باقيين في سبهة . »

« والله أعلم أن خدمتنا[11] على أخذ فزان ....[12] أولى وأحسن من مساطرة[13] أهل الوادي غير عاقلين[14] في سكارة[15] ، لا عندهم كسب ،

---

(1) الأجوبة القارغة التي لا تحمل أي رد ايجابي . (مترجم) .
(2) لا هو الذي ترك فزان ولا هو في نيته أن يسمح لنا بها . (مترجم) .
(3) يريد بهذا محلة كبيرة كثيرة العدد . (مترجم) .
(4) لفظة عامية تعني الرغبة في أن يعمل الانسان ما يفعله سواه ليساويه . (مترجم) .
(5) الشاطيء هنا كما في كل الذي سبق تعني منطقة واسعة من فزان . (مترجم) .
(6) لغة في النسبة الى البلد — الطرابلسيين . (مترجم) .
(7) كامشين — قابضين ، والمقصود متحصنين داخل القصر . (مترجم) .
(8) غزي ورفلة — غزاة ورفلة . (مترجم) .
(9) مشوا — ذهبوا الى سبهة . (مترجم) .
(10) روحوا للوادي رجعوا أو عادوا اليه . (مترجم) .
(11) خدمتنا — عملنا . (مترجم) .
(12) كلمة لم نتمكن من قراءتها وقد أهملها المؤلف حين الترجمة . (مترجم) .
(13) مساطرة — مخاصمة ومحاورة . (مترجم) .
(14) عاقلين — مختبئين ، متحصنين . (مترجم) .
(15) سكارة — القفل ، الشيء المقفول الذي لا ينفذ اليه . (مترجم) .

ولا حرث ، لا غيره . ونبغوك تدبر معانا وتشير علينـــا ؛ وخبرنا عن أحوال الشرق بالتفصيل والتطويل حتى كأننا نشاهدوا فيما هم عليه ، وكيف نديروا[1] . وأخبرونا على أن محمد علي فسد أمره مع الصلطان[2] وساير على الشام من غير إذن الصلطان . ولم نتحققوا صحة الخبر ، تبقى إذا ورد عليك خبر على هذا المعنى ، عرفونا من غير مواهدة ، والمركب هو فيها[3] عندكم ، الخبر الذي يرد عليكم من كل جانب أعلمنـــا به في البحر وإلا في البر[4] وأنت ما تحتاجوا نكثروا لك كلام[5] . الذي يرد عليك وتعرفه يصلح عرّفنا به ، وما أنت إلا ولدنا ، وأقرب ما لدينا ، وربنا يجيب تصرفات الجميع في الصواب . والسلام » .

بتاريخ ٢٨ من شعبان سنة ١٢٤٧ هـ . المرعي بالله عبده

يوسف باشا القرمانلي

أيده الله

كان يوسف باشا أشد الناس اهتماماً وقلقاً لهذا التأخير ، وكان قلقه وانشغاله لسلوك الأمير ولي العهـد في جيشه . ذلك أن علي باي بمجرد إبرام الصلح مع عبد الجليل شرع في ملاحقة القول أغلية ، الذين لم يبدوا صدق عزيمة في القتال ، وخاصة المكونين منهم لمحلته ، أي قول أغلية الساحل والمنشية .

نشأ من جراء هذا بين صفوف المقاتلين استياء خطير ، فقد بدأوا يتمحلون أي عذر لترك المعسكر والعودة إلى ذويهم ، وكان أول من ترك المعسكر قول أغلية الزاوية ، فما كان من الأمير الغاضب لهذا التخلي عنه

---

(1) ماذا نفعل أو كيف نعمل . (مترجم) .
(2) هكذا في الاصل وهو خطأ في الكتابة وصوابه السلطان . (مترجم) .
(3) هو فيها — هي هناك أو هناك هي . (مترجم) .
(4) يريد : الخبر الذي يصلك انقله الينا اما برا واما بحرا بحسب ما يتيسر لك . (مترجم) .
(5) لا نحتاج لاكثار الكلام لك اي انت ممن لا يحتاج للوصية . (مترجم) .

إلا أن استدعى بواسطة عبده علي زكيو Zeheu شيخهم علي الأعور ثم شنقه في حضور الجميع .

أمام هذا المشهد المؤثر لم يسع بعض المشائخ الآخرين الذين يعرفون أنهم مشبوهين إلا الفرار ، فقصد أحدهم « محمد بن رحال » إلى طرابلس غير أن الباشا أعاده إلى المحلة مصحوباً بتوصية لابنه بأن لا يعاقب ولجأ سليمان بو رقيقة إلى خيمة الأمير إبراهيم باي لائذاً بها .

قدر يوسف باشا خطورة الموقف ، فاستدعى بسرعة المكني ، وهو قائد من أحسن قواد الحملة ليسمع منه حقيقة الموقف وما هي النوايا التي يضمرها عبد الجليل .

أكد المكني ليوسف باشا بأن عروض الصلح التي قدمها عبد الجليل لم تكن سوى وسيلة لكسب الوقت وإحداث الفوضى في قوات الإمارة . وأضاف بأن الطريقة الوحيدة للنجاة من ذلك الموقف هي التخلي عن القتال في منطقة ورفلة بالنظر لانعدام النظام في المحلة ، مع التفكير في استعادة فزان التي لا يزال في عدد من مناطقها فئات ذات أهمية تؤيد الإمارة وتخلص للأمير ، وتعارض عبد الجليل .

قبل يوسف باشا بنصيحة المكني هذه ، ووكل إليه شخصياً أمر قيادة محلة جديدة تكونت بالاتفاق وفي معظمها من قول أغلبية المنطقة الشرقية المشهورين منذ زمن بعدائهم لأسرة سيف النصر .

وسرعان ما وصلت خطة الباشا إلى علم عبد الجليل فأقلقته لما يعرفه من قيمة المكني ونفوذه الذي يمكن الاعتماد عليه في فزان فلقد كان هو وأجداده ولأمد طويل حكام فزان وأمراؤه .

لجأ عبد الجليل للقنصل الانجليزي وارنجتون طالباً منه التدخل لدى الباشا لينصرف عن فكرة إرسال المكني على رأس الحملة إلى فزان ، ويحاول إقناعه بالاعتراف بسيادة عبد الجليل على مناطق ورفلة وفزان

وسرت ، كما بعث برجاء مماثل إلى زوجة يوسف باشا الأثيرة اللالا زهرة ، واعداً إياها بهدايا كثيرة[1] .

وبالرغم من أن يوسف باشا لم يشأ أن يتزحزح عن تصميمه ، في أن لا يعطي لعبد الجليل شيئاً ، وبالرغم من عدم ثقته بالقنصل الانجليزي إلا أنه في نفس الوقت لم يستطع أن يخيب رجاءه في أن يمكنه من زيارة ورفلة[2] .

وقد أخبر يوسف باشا وزيره الشيلابي بهذه الحوادث على الشكل التالي في رسالته إليه بتاريخ ٢ فبراير ١٨٣٢ : « فنحن كنا عرفناك من جانب

---

(1) من المعلوم ان عبد الجليل كان قد قضى أيام صغره في قصر الباشا وبين حرمه وكان فيما بعد وقبل ثورته أحد قواده المعدودين فليس غريبا على مثله أن يعلم من أمر وسائل الوصولية السائدة آنذاك ما يمكنه من بلوغ ما يريد ، وهو ولا شك يعرف زهرة ومدى نفوذها على الباشا والأسلوب الناجع معها أو الثمن المغري الذي يضمن معاونتها . وكذلك فان من غير المستبعد ان يعرف وارنجتون هذا ويحاول استغلال معرفته به في الوساطة للتأثير على الباشا . (مترجم) .

(2) لم يوفق المؤلف في هذه الفقرة فيوسف من المفروض انه لم يكن يعلم بمطالب عبد الجليل ، ولا هو سلم بها مبدأ للوساطة ، كما أن سماحه لوارنجتون كانت له دوافع غير الرغبة في تخييب الرجاء وهو الذي سبق له وأن رفض هذه الوساطة . ويخيل الي أن ميكاكي كان اكثر توفيقا حينما قال بأن الباشا كان يشعر بفداحة تكاليف الحملة التي بلغت ما يربو على ١٠٠،٠٠٠ فرنك وذلك في وقت كان احوج ما يكون فيه الى المال ، والى الاستقرار . وان كان ميكاكي لم يوفق حينما رد حرص وارنجتون على القيام بهذه الوساطة الى رغبته في القيام بعمل يعيد اليه نفوذ الباشا ومكانته الأثيرة بين بقية القناصل ذلك أنه كان دائما في امكان وارنجتون بلوغ ذلك من طريق عدم الضغط على الباشا من اجل الديون الانجليزية، ومن طريق عدم التآمر على الباشا وحكومته . واعتقد وذلك بالرغم من عدم توفر دليل مادي بين يدي في الوقت الحاضر أن حرص وارنجتون على الاتصال بعبد الجليل سيف النصر ذاته يعود الى دوافع شخصية تتعلق بقضية لاينج وكرامة وارنجتون المطعونة فيجب ان لا ننسى ان سيف النصر كان زمن الحادث بالسودان ، وانه لذلك قد تكون لديه معلومات تلصق التهمة بالقنصل الفرنسي مع الاثبات وفي هذا رد اعتبار لوارنجتون تجاه دولته . ولا ننسى كذلك أن وارنجتون حاقد على يوسف باشا الذي خذله لضعفه بقبوله الاتفاقية مع فرنسا وهو حقد يتجلى في أعماله التالية وهذا يجعلنا نحتمل وجود مأرب لاذكاء الثورة وشد ساعد سيف النصر حتى اذا نجح في ثورته وكون الدولة الليبية كانت لوارنجتون ولبريطانيا بالتالي أفضلية على الدول عنده . (مترجم) .

أهل وادي بن وليد ، وما آل إليه أمرهم ، وأن المرابطين ... إلى لا عندهم كسب لا حرث لا غيره »[1] .

عقب تصميم يوسف باشا على تنفيذ الخطة سافر المكني قاصداً فزان بتاريخ ١٢ مارس ١٨٣٢ وتحت إمرته ٢٥٠٠ مقاتل . بينما عسكرت بقية المحلة والأميران على رأسها بأراضي زليتن في انتظار الأحداث[2] . أمـــا عبد الجليل فقد أمر من جانبه أخاه عمر بالتمركز في سوكنة بقواته التابعة له ليمنع المكني من اتخـــاذ تلك الطريق[3] . وفي نفس الوقت كاتب رؤساء ومشائخ الدواخل للتحالف معه في قضية مشتركة . فأما غومة شيخ قبائل المحاميد أولاد مرموري MARMURI والذي تتبع كلمته قبائل النوايل والجبالية (البربر) ، والحاج أحمد المريض شيخ ترهونة ، فقد أجابا بالرفض ، وأما الطيب محمد بن سعيد المايل شيخ قبائل محاميد أولاد سعيد بن صولا ، وسالم بن عبد الصمد شيخ غريان فقد قبلا دعوة عبد الجليل ، وأعلنا انضمامها إليه فسجنا عمال القرمانليين (٥ فبراير ١٨٣٢)[4] .

---

(١) اعاد المؤلف في الأصل الايطالي نقل هذه الفقرات من الرسالة دون أن يحذف شيئا منها كما فعلنا نحن هنا (المترجم) .

(٢) لم يذكر المؤلف ولا ذكر ميكاكي ولا سواه ممـن راجعنا مؤلفاتهم اشارة الى موضوع او كيفية انسحاب قوات المحلة من بن وليد ولا المصير الذي انتهى اليه رهائن عبد الجليل الذين تقول الرسالة السابقة انهم بقيطون الامير . ولكن مما لا شك فيه هو أننا نجد قوات عبد الجليل بعد انسحاب قوات الباشا عن واديهم اكثر حرية في التصرف والحركة . (مترجم) .

(٣) كان من المفروض بحسب الخطة المرسومة أن يتقدم علي باي بقواته الى ما وراء بن وليد فيحمي زحف قوات المكني الى فزان ، غير ان نقص المؤن منعه من تنفيذ اوامر والده ، واستقر في موضعه بزليتن بضعة ايام اخرى ثم عاد الى طرابلس بقواته (رسائل القنصل شويل الى دولته بتاريخ ٢٦ فبراير و ١٢ ابريل ١٨٣٢ م .) (مترجم) .

(٤) فلما علمت طرابلس بثورة اهالي تلك المنطقة تمكـن الذيـن جاء بهم علي باي منذ بضعة اشهر كرهائن من الفرار والالتجاء الى القنصلية الانجليزية وبالرغم من أن يوسف قد طالب عبثا باعادتهم اليه فان القنصل الانجليزي وارلنجتون قد تمكن مـن تهريبهم فرادى الى خارج المدينة حيث عادوا الى ذويهم (يوميات وارلنجتون ـ فبراير ١٨٣٢) .

وقد أخاف يوسف باشا انضمام هذين الرئيسين الثائرين إلى عدوه ، وجعله يخشى تهديدهما لظهر محلة الأميرين المعسكرة في زليتن ، فأمرهما بالعودة ناوياً بعثهما من جديد في الوقت المناسب لمهاجمة الأعداء الجدد في غريان[1] .

« إلى هنا نهاية القسم الأول من المقال والمنشور في العدد الأول من السنة الرابعة (١٩٣٠ م) » .

---

(١) رسائل أحمد القليبي للشلابي ، رسالتا يوسف باشا بتاريخ ١٢ ديسمبر ١٨٣١ ، و ٢٠ فبراير ١٨٣٢ الى الشلابي ، السجل رقم ٦ للمبايعات والاحكام الصادرة عـن محكمة طرابلس الشرعية . (المؤلف) .

مصادر التحقيقات :

١ — المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب
لأحمد بك النائب الطرابلسي

٢ — التذكار فيما جرى بطرابلس من الأخبار
لابـن غـلبون الـطرابلسـي

3 — Rodolfo Micacchi : La Tripolitania sotto il Governo dei Caramanli

4 — P. Costanzo Bergna : Tripoli dal 1510 al 1850.

5 — idem. I caramanli in Libia An. I No. 2 Aprile-Giugno 1953.

6 — Attiglio Mori : L'Esplorazione Geografica della Libia.

7 — Sir Haray Johnstone : La Coloniz zazione dell'Africa.

الفصل الرابع

تهديدات انجليزية وانقلاب القول اغلية

بعد أن دخلت المحلة إلى المدينة تقدم قول أغلية الساحل والمنشية إلى الباشا بشكواهم من المعاملة السيئة التي عوملوا بهـا من قِبل الأمير ولي العهد ، غير أنهم لم يتحصلوا من الباشا على ما يطمئنهم ويرضيهم فخرجوا من عنده غاضبين . ومن هنا تولّد عند القول أغلية شعور عدواني ضـد الباشا وولي عهده الذي شارك في أحـداث الثورة التي سنتعرض لها بعد قليل .

وفي نفس الوقت كان قنصل بريطانيا يصرّ على طلبه في أن تدفع ديون الرعايا الإنجليز (١) ، ويلوح بتهديدات جدية في حـالة تأخير

(١) ما أن انتهى مـن تقرير مبدأ الدفع للديون الفرنسية حسب الاتفاق الجديد مع شوبيل ، حتى تقدم القنصل الانجليزي وارنجتون يطلب اليه ان يعمل على ترضية الدائنين الانجليز في نفس المدة ، ولكن محاولاته في الضغط على القرمانليين ذهبت سدى ، ولم يحصل الا على تسديد قسط بسيط من مجموع الديون الانجليزية .

وفي أوائل ديسمبر ١٨٣١ جدد وارنجتون ، مستغلا وجود مدمرة انجليزية في مـياه طرابلس ، مطالبته وضغطه على وجوب سداد الديون المستحقة على الحكومة حتى شهر اكتوبر الماضي ولكنه لم يحصل على شيء سوى الاستجابة لرغبته السابقة في أن يوسط لحل الازمة ويمكنه مـن اجل هذا مـن زيارة الثائر عبد الجليل سيف النصر .

وفي يناير من السنة التالية (١٨٣٢) وقبل أن يرجع وارنجتون من بن وليد قدمت من مالطة مدمرة انجليزية لتدعم طلب الديون الانجليزية ، غير أن الباشا تمسك بموقفه ووعوده السابقة . (مترجم) .

أن يسلم بالحصار الذي ضرب على العصاة بأمر شاكر افندي على امتداد الساحل حتى الملاحة . ومهما يكن من أمر فإن علي باشا المسكين لم يستفد من تولية السلطان له إلا لأشهر قليلة[1] .

(1) رسائل القليبي الى الشيلابي ـ الفقيه حسن يوميات حوادث طرابلس ـ رسائل قنصليتي توسكانا وسردينيا ـ رسائل شاكر افندي الى العصاة في المنشية والساحل J. Serres (المصدر السابق) . (مؤلف) .

الفصل الثامن

الحملة التركيّة ونهاية الامارة القرمانليّة

ما إن سافر شاكر أفندي من طرابلس حتى عقد القول أغلبية اجتماعاً بدعوة من الشيلابي قرروا فيه تقديم عريضة جماعية إلى السلطان يؤكدون فيها ولاءهم وتبعيتهم ويطالبون حكومته بأن تعمل على إيفاد باشا آخر من تركيا إذا كانت لا توافق على ولاية الأمير محمد الذي اختاروه وأعلنوا مقدماً رضاءهم عنه وخضوعهم له .

وقد قدمت هذه العريضة بواسطة داي تونس حسين باشا الذي آزرها على أمل أن يسند السلطان ولايتها إلى (أخيه) مصطفى باي .

ولكن الحكومة العثمانية بعد فشل بعثة شاكر أفندي الأخيرة قررت تغيير فكرتها والمبادرة إلى احتلال طرابلس عسكرياً .

ولم تكن الحكومة العثمانية تستطيع حتى أن تفكر فقط في ذلك لأنها كانت تعاني مجموعة من المشاكل ، أما الآن وقد توصلت إلى تفاهم ولو مؤقت مع محمد علي باشا نائب الملك بمصر فلم تعد لديها مشاكل خطيرة مع دول أوربا .

ومن الأمور التي حملت الدولة العثمانية إلى اتخاذ هذا القرار ما صادفته

فرنسا من صعوبات في احتلالها للجزائر ، وهو الاحتلال الذي لم يُسلم به الباب العالي بعد .

وحق شاكر أفندي استطاع أن يكوّن فكرة واضحة صحيحة عن الأوضاع في طرابلس عقب زيارته الأخيرة وهو ما لم يكن ليستطيع التوصل إليه قبل ذلك . ولا بد أنه لم يتوان في إبداء هذا الرأي إلى حكومته كحل جذري للمسألة .

وقد غادرت الحملة العثمانية العسكرية لاحتلال طرابلس مدينة القسطنطينية في ٣٠ مارس ١٨٣٥ ، وكانت مكوّنة من اثنتين وعشرين سفينة منها ستة عشر سفينة حربية وعلى ظهرها ستة آلاف جندي تحت قيادة الجنرال مصطفى نجيب باشا . ووصلت الحملة إلى ميناء طرابلس يوم ٢٥ مايو ١٨٣٥ . ولم يكن وصولها على غير انتظار ، فقد كانت الاشاعات تتردد منذ بضعة أشهر بين دوائر سكان طرابلس عن أخبار هذه الحملة[1] .

ولم يكن علي باشا من السذاجة ليرى في تأكيد جازم بأن مجيء هذا الأسطول العثماني إنما لمساعدته ومساندة سلطانه ولكنه وقد وضع بين شقي الرحى لم يسعه سوى الاستسلام لمصيره الذي تسيره الأحداث .

وحينما أرست سفن الأسطول العثماني بالميناء حيث المدينة بستة طلقات

(١) يذكر النائب حول كيفية وصول هذا الخبر الى طرابلس ما يلي : « وفي اوائل ذي الحجة من هذه السنة (١٢٥٠) قدم اسطول فرانساوي وعلى أثره اسطول انكليزي وأخبر اميراهما ان الدولة العلية مهتمة بتجهيز عدة اساطيل حربية ، وسيكون قدومهم قريبا الى هذا الطرف لردعهم واطفاء نار الفتنة ، وشوقا الفريقين على الوفاق قبل قدوم تلك الاساطيل وضياع امتيازهم . فلم يصغ لقولهما وذهبت تلك المساعي ادراج الرياح ، ودامت هذه الفتنة والحروب الاهلية نحو العامين ... » واني أرى في هذا اكثر مما يرويه النائب فما من شك في ان فرنسا وبريطانيا قد حاولتا نوعا من الوساطة حينما قررت تركيا التدخل عسكريا في الموضوع حتى اذا امكن التوفيق كان في مقدور الدولتين ان تحولا دون تدخل تركيا العسكري ، الامر الذي يحسبان حسابه وحساب نتائجه على سياستهما تجاهها ولكن لا اشارة غير ما ذكر النائب في هذا الموضوع . (مترجم) .

من مدافعها فسارع الباشا بالرد على التحية بسبع طلقات ثم قام بزيارة رسمية للترحيب بالجنرال . واستقبله هذا بكل حفاوة وتقدير موهماً إياه بأنه إنما جاء لنجدته ورجاه لذلك أن يهيىء مساكن مناسبة لرجال حملته الذين سينزلون فيما بعد إلى البر ومن ثم يحتلون جميع مراكز الدفاع في المدينة .

وفي اليوم التالي نزلت قوات نجيب باشا إلى المدينة واتخذوا مساكنهم في الأماكن التي خصصت لهم واستولوا على جميع الحصون والاستحكامات وفي ذات اليوم نزل كذلك شاكر أفندي نفسه بحجة الرغبة في الاتفاق مع سلطات الباي (الباشا) على تخصيص مسكن مناسب لإقامة الجنرال . واغتنم هذه الفرصة فدعى علي باشا إلى السفينة لينزل فيما بعد برفقة الجنرال .

ولم يتأخر علي باشا عن زيارة الباشا على ظهر السفينة في حاشيته وكان على جانبي الطريق فيما بين السراية والميناء قد اصطفت جنود الأتراك النظاميين الذين نزلوا من السفن في اليوم السابق . وحينما وصل علي باشا إلى ظهر سفينة القيادة أُبلغ بالنبأ الفاجع القاضي بعزله عن إمارة طرابلس والأمر بإبعاده إلى القسطنطينية مع العائلة فوراً وكل من يرغب في مرافقته .

ونزل نجيب باشا تحييه المدفعية من الأسطول والاستحكامات من المدينة وصيحات الجند الذين اصطفوا لتحية نزوله والسكان الذين ملوا الصراع والحرمان وحالة الحصار التي دامت ثلاث سنوات واتجه إلى المنزل الذي خصص له (منزل المغفور لها اللّلا مسعودة الجهانية زوجة يوسف باشا — الآن « ١٩٣٠ » مقر شركة ناحوم)[1] حيث وفد للترحيب به جميع أعيان

(١) اللّلا مسعودة هي والدة ابراهيم مصطفى وعمورة والد حسونة القرمانلي (المؤلف) .

...ينة ووجهاؤها ، وقد تحدث معهم ودعاهم إلى الدعاء للسلطان وشكره ...فضله بالاهتمام بهم ومن ثم رجـــاهم انتظاره بالسراي حيث لحـق بهم ...د قليل فوجد في انتظاره علماء البلد ووجهاؤها وأعيانها .

وفي قاعـة الاحتفالات الكبرى ومع دوي المدافع المحيية تلي فرمان ...لطان الذي يعلن انتهاء (سقوط) الإمارة القرمانلية وتعيين مصطفى ...يب باشا حاكماً على طرابلس بصفة مؤقتة .

...هذا الفرمان الموجه إلى القاضي والمفتي والعلماء وشيخ البلاد والأعيان ...وي بصورة إجمالية على ما يأتي :

« ...بما أننا قد تأكدنا من أن الذين يحكمون منذ أمد طويل طرابلس ...تكوّن جزءاً من الامبراطورية ولا سيما يوسف باشا وابنـه علي باشا ...ين كانا طاغيتين لا يعاملان بالعدل والحسنى الناس فقد قررنا عزل علي ...ا وإسناد الحكم مؤقتاً إلى الجنرال مصطفى نجيب باشا الذي كلفناه ...يرسل إلى مقرنا المخلوع علي باشا ووالده يوسف بالإضافـة إلى جميع ...بائها » .

وعقب الفراغ من تلاوة الفرمان فتحت بأمر من نجيب باشا جميـع ...واب التي كانت مقفلة ومبني عليها فاندفعت منها جموع أهالي المنشية ...ساحل حيث قدموا ولاءهم وطاعتهم للوالي الجديد . وكانت المدينـة ...بالحادث الجديد .

...وفي صمت غادرت السفينة الحربية المقلة لعـلي باشا القرمانلي المعزول ...قه وزيره محمد الدغيس . أما محمد القرمانلي أمير المتمردين فقد انتحر ...حالة الذعر الذي أصابه[1] .

---

[1] ...دفن هذا بمقبرة سيدي الصيد بساحل طرابلس . (المؤلف) .
...اما اخوه احمد وولي عهده فيذكر النائب انه تمكن من الفرار الى مالطة (مترجم) .

بقي في طرابلس من عائلة القرمانلي يوسف باشا الذي أسكن بمنزل زوجته المتوفاة مع ابنيه ابراهيم باي وعمورة باي . ولم يجد مصطفى نجيب باشا ولا خلفـه محمد رئيف باشا أن من الضروري نفي الشيخ العاجز يوسف باشا الى الآستانة كما كان يريد الباب العالي ويلح ، وقد تركا بجانبه ابنيه الأثيرين لديه بغية استغلالهما في عملية نشر السلام الداخلي وخاصة مع غومـة الشيخ ذي النفوذ الكبير والذي كان محباً ومتعلقاً بأسرة القرمانليين[1] .

وفيما يلي ننشر بعض الوثائق المتعلقة بأسرة القرمانليين في عهد لاحق :

رسالة من مصطفى نجيب إلى الشيخ القاضي[2] .

« الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وسلم » .

« الخـتم »

« الأجل الأفضل الأكمل الأشمل محبنا سيدي الشيخ القاضي أكرمه الله آمين . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . ويليه إعلامكم أنه غدو صبيحة يوم الخميس الموافق إلى ستة أيام من شهر ربيع أول سنة ١٢٥١ في ساعة ونصف بعد الاثني عشرة ساعة تكون حاضر أنت وساداتنا العلمـاء في جامع سيدي درغوة[3] لانفصال قضية الأملاك المبيوعة الذي باعها علي

---

(١) رسائل احمد القليبي الى الشيلابي . احمد بن ضياف : تاريخ تونس غير منشـور .
La Politique Turqe en Afrique Du nord تأليف Jean Sevrres
الفقيه حسن تاريخ حوادث طرابلس السجل رقم ٦ من محكمة طرابلس الشرعية . (المؤلف)

(٢) ننقل هذه عن أصلها المنشور لها بالزنكفراف وهي آخر الرسائل المصورة في هذا المقـال (مترجم) .

(٣) هكذا في الأصل . وتجب ملاحظة ان الموعد المضروب هو الساعة السابعة والنصـف من صباح ذلك اليوم بحسب توقيتنا الحالي فان التوقيت العربي يجعل الغروب اول التوقيت وليس الزوال كما هي الحال في الوقت الحاضر . (مترجم) .

باشا وغيره لبيات[1] عرفكم على كلمة وحدة[2] بحضرة شيخ البلاد وقايد الساحل وقايد المشية ولا بد من انفصال ذالك إن شاء الله والسلام . بتاريخ ٥ في ربيع أول ١٢٥١ (١ يوليه ١٨٣٥ م) .

(الطفرة)

مصطفى نجيب باشا

متصرف طرابلس غرب

رسالة من محمد الدغيس :

« إلى المبجل والدنا القاضي سيدي أحمد التوغار » .

« بعد التحية ... » .

لقد استلمنا جميع رسائلكم ما عدا تلك التي أرسلتموها بواسطة الحاج عمر فارس التي لم نستلمها وربما لأنها ضاعت . لقد وصلت في أتم الصحة والعافية زوجة سيدنا وأولاده بعد عشرين يوماً من السفر ، ومنهم عرفنا كم قاسيتم من الآلام خفف الله آلامنا .

في بداية الـ ... وصل إلى هنا كاتب هذه قادماً من لندن[3] ، ونحن في انتظار سيدي حسونة (الدغيس) لأن الحكومة العلية طلبت إليه الحضور إلا أنه سيؤخر حضوره لبعض الأعمال والآن لاقتراب الشتاء ربما أخر مجيئه في أوائل رمضان وصل إلى طرفنا سيدي عصمان (الأمير ابن يوسف باشا) قادماً من مالطة . بينما بقي خليل باي (حفيد يوسف باشا)

(١) يبات الراي ينتهي الى قرار وهو المقصود هنا (مترجم) .

(٢) وحدة يقصد واحدة واللفظ عامي دارج (مترجم) .

(٣) يقول المؤلف بان كاتب هذه الرسالة هو محمد الدغيس ظنا ولكن هذه العبارة تجعلني اشك في انها منه فالمعروف انه رافق سيده علي باشا من طرابلس فما الذي ذهب به الى لندن ثم انه يقول عن حسونة الدغيس سيدي بينما محمد أخ لهذا وليس من المألوف ان يقول هذا عن اخيه . (مترجم) .

وهكذا ثبت ولاء سيدنا لدى الحكومة التي ارتاحت لهذا . حوالي أواخر شهر جمادى الثانية سافر قائد الأميرالات (أمير البحر أو وزير البحرية) إلى جزر إيجه ثم عاد في أواخر رمضان . إنه يبدي كثيراً من الود لسيدنا ولنا أيضاً وهو أهم الشخصيات هنا وأقواها نفوذاً ، قبل سفره أي حينما وصلت عائلة سيدنا رفع له هذا الماهية إلى ٧٥٠ ريالاً ذهباً بينما كانت في السابق ٣٥٠ فقط . ومع كل هذا فإن الماهية لا يكفي مطلقاً . البوادر والاشارات توحي بالنجاح وبلوغ الهدف حتى ولو أن هذا سيأتي متأخراً .

في السابق خصصوا بارجة وعدداً من السفن لتتجه إلى طرابلس كما عينوا قاضياً جديداً . السفن أبحرت ولكن البارجة حجزت وبقي القاضي هنا . ولا نعرف سبب هذا . أرجو أن لا تلوموني على عدم الكتابة إليك ، والسبب هو أنه لا يوجد لدينا ما يوجب الكتابة أو يستحقها . ولأن سيدنا حذروه من الكتابة للرد على أي أحد ومن السماح لأي منا بالكتابة في أي شيء وذلك لتجنب الأقاويل . ورسالتي هذه لا تمكنوا أحداً من رؤيتها . في شهر ربيع الثاني الماضي بعثت إليكم برسالة بواسطة فيدال Vidal ولكني لا أعرف إذا كنتم قد استلمتموها . ذكرت لكم بعاليه أن البوادر والاشارات تنبىء بالنجاح وغير ذلك . نعم وإذا أراد الله في هذا الربيع ستتحقق هذه التنبؤات لأنه يبدو أنهم (يقصد الأتراك) لن يتمكنوا من عمل أي شيء في طرابلس حتى ولو اختاروا بدلاً مني أشخاصاً آخرين[1] .

الذهب لا يرتفع سعره لو أن النحاس يجد رواجاً . معنى هذا واضح

(١) في هذه الفقرة ما يفيد أن هناك محاولات كانت تدور في الخفاء للقيام بمحاولة انقلاب على الاتراك في طرابلس وأن كاتب الرسالة كان على علم من بعض خيوطها والى جانب هذا فقد كان يحيا فيما يبدو على أمل يداعبه في أن يفشل الاتراك في السيطرة على طرابلس فيلجئهم هذا الى الاستعانة به . مسكين هذا وكل من هو في مثل وضعه من علماء الماضي الذين يفقدون السلطان . (مترجم) .

وفيه الكفاية . لستم في حاجة إلى توصية لترعوا مصالحنا وتحافظوا عليها في حدود الإمكان . المسكن الصغير يمكنكم تأجيره ، وكذلك منزلنا الذي اشتريناه من القماطي ، والمنزل الكبير ، والمنزل الذي يوجد بالحارة والذي يقع خلفه . وإذا كان ممكناً أرجوكم أن تبعثوا إليّ بواسطة Vidal ثلاثمائة ريال ذهباً . وإذا كان قد سافر فسلموا هـذا المبلغ إلى قنصل فرنسا الذي سيعمل على تحويلها لنا عن طريق مالطة . إنني محتاج جداً لهذا المبلغ الذي أرجو أن ترسلوه إليّ حتى ولو بعتم العبـدين اللذين تركتها بالمنزل ، ولو أنني غير محتاج لما أتعبتكم بهذا الطلب . وعلى كل حال أرجو عدم مؤاخذتي .

إذا كان فيدال قد سافر فإني أرجوكم أن تحرقوا الرسالة المعنونة إليه أما تلك (المعنونة) إلى فنشنسينو Vincenzino فسلموها إليـه ورسالة قاسم المرابطة ابعثوا بها إليه .

سلموا لنا على أنجالكم سيدي محمد ، سيدي حسن ، وأما من جانبنا فسيدنا وأنجاله وكاتب الرسالة يبلغونكم السلام . والله نرجو أن يمتعكم بالهناء والسعادة . ونرجو أن لا تحرمونا من أخباركم وأخبار البلاد .

أرائل شوال سنة ١٢٥١ (يناير ١٨٣٦) .

من ابنكم الذي يقبّل أيديكم

(بدون امضاء)[١]

ملحق خير :

رسالة فنشنسينو (كلمتان غير واضحتان) لا تسلموها له ، وابعثوا بها مع شخص إلى والدة ببينو Peppino .

رسالة أخرى من ذات الشخص :

---

(١) ليس من شك في أن محمد الدغيس هو الذي بعث بها فهو صهر القاضي أحمد التوغـار (مؤلف) .

« إلى والدنا سيدي أحمد التوغار » .

« بعد التحية ... » .

في رسالة بتاريخ ١٤ ذو القعدة أرسلناها لكم عن طريق مالطـة بواسطة التاجر فرنسيس Franquis أعلمناكم برغبتنـا الشديدة في رؤياكم ومعرفة أحوالكم . لقد أصبحت هنا غريباً[١] . ولم يبق لي من الأقرباء والأصحاب عداكم . لقد انقضى حوالي الشهرين من غير أن أستلم منكم أية رسالة ولا أعلم شيئاً من أخباركم وخاصة الحفيدة الصغيرة (يقصد ابنة أخيه محمد الوحيدة) فنرجوكم ألا تحرمونا من أخباركم وتعلمونا عما يقع بطرفكم . أعلمونا أيضاً عما يقوله الدائنون حـاولوا اقناعهم بالصبر الى أن أتمكن أنا من تصفية أموري هنا .

منذ اليوم الذي توفي فيه فقيدنا[٢] وأنا أعمل على تصفية أمورنا مع الدولة وأحاول التخلص من الديون التي يصعب علينا تحملها ادعو لنا بأن يساعدنا ويأخذ بيدنا .

لو لم يكن هذا الموضوع وهذه المشاكل والديون التي أسعى لدى الدولة لتخلصنا منهـا لكنت جئت إليكم فأوصيكم بالعائلة والأولاد والممتلكات فنحن الآن قد صرنا جسداً واحداً والله شاهـد . فبينا أنتم تعملون هناك وتقدمون لنا كل ما نحتاجه (للقضية) أنا من عندي هنا أعمل بعون الله لتحديد مسألتنا مع الحكومة التي آمل وأرجو أن أحصل منها على رغباتنا . أما فيما يختص بعلي باشا (الباشا المعزول من القرمانليين)

---

(١) في الواقع أنه حينما كتب محمد الدغيس بهذه الرسالة كانت اخته حويوه ، زوجـة علي باشا وكذلك اخواه خسونة ومحمد قد ماتوا جميعا . وكان هو على خلاف مع علي باشا وقد اضطر الى ترك منزله واللجوء الى احدى تكايا اياصوفيا كأي غريب لاجيء (المؤلف)

(٢) يشير الى اخيه محمد الدغيس الذي مات بالقسطنطينية في ٥ ذو القعـدة ١٢٥٧ (١٩ ديسمبر ١٨٤١) — المؤلف —

فإن العداوة بيننا وبينه قد ثبتت ، كما ولا شك علمتم وأدركتم . لقد كافأنا شراً على خدماتنا له . وفعل بما يتفق وطبعه السيىء ولكن الحمد لله فهو لا حول ولا قوة له ليضرنا وهو مثل الدجاجة بل وأقل من ذلك .

بعد أن تركنا بيته ندم كثيراً ولا يقر له قرار من الشكوى والأنين والتوجع . وكل الناس لامته على ما فعله معنا وأصبح مثلاً سيئاً لدى الجميع ، لقد دعاني إلى العودة إلى السكنى معه ولكنني رفضت دعوته لأنني قبل أن أغادر منزله خفت من يدس لي السم في الطعام وقد كانت مخاوفي هذه قوية لما أعلمه من روحه الشريرة .

على كل حال أحمد الله على أنه ندم ببرارة مما فعل معنا . ولقد بدأت السلطات تحقيقاً حول أمورنا وقد نكر بكل إصرار أن يكون لنا عنده أي شيء ولكنني أحاول إيجاد شهود من رجال الدولة الذين سبق لهم أن تأكدوا من حاجياتنا لديه وسمعوا منه اعترافات حولها في بعض المرات .

وبهذا سيهزم وسيلاقي جزاء ما جنت يداه . سلامي إلى الأسرة .

١٣ محرم ١٢٥٨ (٢٤ فبراير ١٨٤٢) .

محمد السيد الدغيس

انتهى الكتاب

شجرة الأسرة القرمانلية

يوسف ونسله

مصطفى قرمانلي
محمود
احمد باشا ١٧١١ - ١٧٤١
محمد باشا ١٧٤٥ - ١٧٥٤
علي باشا (الأول) ١٧٥٤ - ١٧٩٣
يوسف باشا ١٧٩٥ - ١٨٣٢

محمد — محمد ، أحمد
أحمد — محمد ، سليمان
محمود
خدوجة
علي باشا ١٨٣٢ - ١٨٣٥ — سليمان ، أحمد ، محمد كامل ، يوسف ، زينوبة ، عصمان ، فاطمة ، فريدة
سليمان — فاطمة — سليمان سرور
محمد كامل — عمر صفدار ، علي ، زينب فائقة — إيفت
عصمان — توفيق
عويشة
ابراهيم
قميرة
عيشة
مصطفى — محمود
عصمان — زينوبة
عمورة — محمود — أورخان
خليل
محمد — صبري ، إسماعيل ، مراد — محمد بهجت ، يوسف
حسونة باشا — علي ، أحمد فاضل
ابراهيم ، عثمان ، المهدي ، سليمان ، الطاهر

تذييل المعرّب

في هذه الفصول الثمانية التي كوّنت المقال الذي ترجم فكورن هذا الكتاب رأينا كيف انتهت الدولة القرمانلية التي حكمت ليبيا فيما بين سنتي ١٧١١ و ١٨٣٥.

والصورة التي يقدمها لنا هذا البحث هي في الحقيقة صورة قاتمة لأنها تعرض نهاية الدولة في عهد ضعفها وتقلص سلطانها. والحكم على هذه الدولة تاريخياً بحوادث هذه الفترة من عهدها فقط يعتبر حكماً قاسياً لا عدل فيه ولا إنصاف.

ولما كان القارئ سينتهي حتماً ولا شك إلى نتيجة ما، فإني كمؤرخ ليبي يهمني جداً أن تكون هذه النتيجة صادقة بحيث تتمشى مع واقع التاريخ في تطور أحداثه، لذلك فقد رأيت من الإنصاف للتاريخ أن أنبه في مستهل هذا التذييل إلى هذه الحقيقة حتى لا يذهب هذا الجانب القاتم من الصورة بجانبها الآخر المشرق الوضاء الذي يقدم لنا تاريخ الدولة القرمانلية في عهد قوتها ومجدها يوم كانت أساطيلها تمخر عباب البحر فتذل دولاً قوية وتجبرها على الاستسلام لإرادتها التي تمليها كما تشاء.

وقد حاول الكاتب أن يقدم العامل السياسي الأول الذي نشأت عنه سلسلة من العوامل الاقتصادية والاجتماعية أدت في مجموعها إلى انهيار هذه الدولة ولكنه أهمل جانباً آخر سبق ذلك العامل السياسي لأسباب أهم

أن الكاتب كان يكتب بالإيطالية وفي مجلة استعمارية وعهد تسيطر فيه على بلاده التي يؤرخ لها حكومة فوق أنها استعمارية هي ذاتها كانت تدين بحكم لا يعارف للرأي والبحث العلمي بحريته في التعبير . وهـذا الجانب المهول في البحث هو تحالف دول غرب وجنوب أوربا واتفاقها على وجوب القضاء على حكومات الشمال الإفريقي من طريق محاربتهـا في موارد اقتصادياتها التي تعتمد عليها : ١) القضاء عليها كقوة بحرية . ٢) القضاء على نشاطهـا التجاري من طريق إغراقها في الديون . ٣) الاستيلاء على مناطق الجنوب الغنية والحيلولة بين قوافلها التجارية وحرية التجارة مع هذه البلاد . وقد نجحت في هذا أوربا فانهارت الدويلات الإفريقية .

بعد هذا أعود إلى موضوع الكتاب ذاته لأناقش بضعة أمور بعينها . وأول هـذه الأمور جملة ذلك الدور الذي لعبته السياسة الانجليزية في القضاء على هذه الأسرة سعياً وراء غايات لا تخفى على الباحث في تاريخ الشمال الافريقي في ذلك الحين ، فلولا قنصلها وارنجتون ، ومـا لعبه من أدوار وحاكه من مؤامرات في السر والعلن لكانت نهايتها على غير ما انتهت إليه . فوارنجتون هذا هو الذي خلق أزمة الميجر لاينج السياسية بدسه واتهامه المغرض للباشا في شخص وزيره الدغيس الذي جعل منه متآمراً على حياة الرائد الانجليزي لاينج يدفعه عامل النفع أو الصداقة لخدمة قنصل فرنسا ذلك المنافس الخطير . مما سبب قطع العلاقـة بين إمارة طرابلس وفرنسا أولاً ثم إلى ضغط فرنسا على الباشا والقضاء عليه بنصوص تلك المعاهدة التي فرضها قائدها روساميل .

ووارنجتون هو الذي أثار السكان على الباشا وحرضهم على الخروج عن طاعته وهو الذي سمح لنفسه بغضاً للباشا وانتقاماً من حكومته بأن يكون مع الثوار وبأن يمدهم ويعمل معهم خلافاً لكل عرف دولي .

ووارنجتون هو الذي ضيّق الخناق على حكومة الباشا ليجبرها على

دفع ديون لرعايا الدولة التي يمثلها كان هو ذاته سبباً في إيجادها والمشجع الأول للباشا على الاستزادة منها حتى يجعل منه في النهـاية طوع أمره ورهن إرادته .

وثاني هذه الأمور هو السياسة الاستعمارية لكل من فرنسا وبريطانيا ، تلك السياسة التي استمرت طوال القرن التاسع عشر ولم تتخـذ طابع الاتزان والتفاهم بينهما إلا بعد حادثة فاشودة التي أزمت ما بين الدولتين ووقفت بهما عند حافة الحرب المسلحة .

ففي الوقت الذي كانت كل دولة منهما تدفع بقنصلها إلى اتخاذ مسلك معين في طرابلس تجاه الباشا وحكومته وتجـاه قنصل الدولة الأخرى كانت في ذات الوقت ولظروف دولية تكسب أعمـاله طابع التصرف الفردي وتحمله مسئولية العمل الذي كانت هي ذاتها الآمرة به .

وإذا كانت فرنسا في هـذه الآونة قد غيرت قنصلها الأول روسو استجابة لرجاء الشيلابي ، وإذا كانت قد غيرت قنصلها شويبل بحجـة التخفيف من حدة تنافس القنصليتين في طرابلس فإن بريطانيا التي تسير على ذات السياسة كانت في كل مرة تتأزم فيها الأمور تكتفي بالتحقيق في تصرفات ممثلها لتنتهي إلى لا شيء وتبقي عليه في منصبه وترفض أن تغيره مهما كان المطالب بذلك الباشا أو فرنسا أو تركيا . والعجيب أن لا تكون لبريطانيا أو فرنسا غاية في امتلاك طرابلس ذاتها وإنمـا كان همّ كل منهما أن تحول بين الدولة الأخرى واتساع نفوذهـا في الولاية ولبلوغ ذلك كانت كل منهما تحاول أن توجد لها على رأس هذه الدولة صنيعة لها توجهه لخدمة مصالحها وعرقلة مصالح الدولـة الأخرى . وإذا كان يوسف في عهد قوته قد استطاع أن يتلاعب بالقنصلين معاً ويقصي أحدهما حيناً ليقرب منه الآخر ثم يقلب ظهر المجن له ليقرب منه خصمه مما مكنه من تحقيق توازن خادع بين سياسة الدولتين المتنافستين فإنه في

عهد ضعفه أخطأ في تقدير الحد الذي يجب عنده إجراء التغيير فأدى هذا إلى انكشافه وابتعاد الاثنين عنه وعملها على التخلص منه فضغطا عليه لدفع الديون . وأخطأ مرة أخرى في تقدير المدى الذي يستطيع الشعب تحمله من أعباء السياسة المالية والحد الذي كان عليه أن يتوقف عنده في جباية الضرائب وفرضها فكانت نهايته .

وكان اختلاف الشعب على من سيخلفه قد أعطى الدولتين أداة صالحة لتحقيق التفوق لإحداهما على الأخرى في تنافسهما ذاك فتحزبت فرنسا وانحازت للوريث الشرعي علي باي ، لا لأنها كانت تحترم هذه الشرعية ، ولا لأنها كانت تخشى حزب القول أغلية ولكن لأنها وجدت فيه الشخص المحقق لغايتها فهو على غير وفاق مع وارنجتون ، وهو فيما يبدو كان يحمّله ودولته تبعة ما انتهت إليه حالة البلاد والأسرة القرمانلية . وتحزبت بريطانيا لمحمد باي الثائر على جده وانحازت له لا لأنها كانت تخشى حزب الأهالي ، ولا لأنها كانت تريد القضاء على علي باي وإنما لأنها رأت فيه ما يحقق غايتها فهو يرى ولا شك في مؤيدي عمه خصوماً له ، وهو فوق هذا ضعيف يمكن لهم السيطرة عليه . وأدى تنافسهما إلى استحالة تفوق أيهما على خصمه وكان التدخل العثماني المباشر هو الحل المقبول .

وثالث هذه الأمور هو التركيب الاجتماعي لسكان البلاد فإنهم وقد ثاروا – وكان من حقهم أن يثوروا – كان في إمكانهم أن ينجحوا في ثورتهم تلك فينتهوا منها بحكومة وطنية خالصة ليست بالعثمانية ولا بالقرمانلية ولكنهم فشلوا لانقسامهم على ذاتهم ، وتعدد زعاماتهم مع اختلاف في المشارب والاتجاه :

عرب شرق وعرب غرب تحت زعامة عبد الجليل سيف النصر الذي ثار مدفوعاً بحقد وطموح شخصي ومستغلاً ظروف البلاد القاسية وسوء إدارة الفئة الحاكمة . وتحت زعامة غومة بن خليفة المحمودي الشديد الولاء

والتعلق بالأسرة القرمانلية . وكلا الرجلين زعيم في قومه واسع النفوذ مسموع الكلمة . وإدراك كل منهما لقوة صاحبه جعله يحجم عن التصادم وعن الاتفاق والتحالف لتحقيق شيء عظيم . وقول أغلية أو كراغلة وأهالي حزبان غاية كل منهما السيطرة والنفوذ فالكراغلة أنصار الأمير وجنده وحماة عهده وهم لذلك سادة ورؤساء وحريصون على الاحتفاظ بما يتمتعون به من امتياز وحظوة وعلى رأسهم زعيم عركته الأيام وحنكته الأحداث سياسي داهية يعرف من أين تؤكل الكتف . والأهالي أناس باعدت بينهم وبين السلطان ظروف تاريخية واجتماعية فعاشوا في بلادهم عليهم الغرم ولخصومهم الغنم حتى ملوا هذا الوضع وأنفوا من الاستمرار فيه فتربصوا للثورة عليه للخروج منه . وكلا الفريقين وقد ألف أن يكون سواء أكان في عهد القوة أو الضعف منقاداً لغير بنيه استعان بواحد من أفراد الأسرة التي ثاروا على عميدها ورأسها . فالأهالي تحزبوا لعلي لما له من صلة بهم ولما بينه والكراغلة من نفور وتباغض فنادوا به وفرضوه ، والكراغلة وقد ثاروا على يوسف باشا وهو ركيزة نفوذهم لم يجدوا بداً من البحث عن غير علي ابنه وولي عهده فكان الحفيد خير من يحقق لهم ما ينشدون من تنصيبه قائداً لهم وأميراً عليهم يحفظ استمرار نفوذهم وهو في ذات الوقت صنيعة لهم ، ودمية خلقوها لينضم حوله الناس .

وللفئتين زعماء أقوياء الشخصية ذوي نفوذ ورأي سديد ولكنهم في ذات الوقت أبناء بيئتهم وصنع مجتمعهم لذلك لم يفكروا في التعالي عن قومهم إلى درجة القيادة العليا ، وقد كان كل من الشيلابي في الكراغلة والدغيس في الأهالي قادراً على أن يقوم بالدور وينجح فيه .

وإلى جانب هؤلاء زعماء آخرين أقل شأناً وأضعف نفوذاً ولكن كل واحد في قومه قمة ولهم رئيساً . كل هذا في الجانب الغربي من البلاد ،

أما أهل برقة فهم ليسوا خيراً من أشقائهم في طرابلس ، فحزب الجبارنة ككل يقابل حزب الحرابي ويتوازن معه في صراع دائم لا نهـاية له وكلاهما منقسم على نفسه وليس من السهل إجماعه على أي زعيم من بليه .

وهكذا فشلت ثورة سيف النصر في النهاية كما فشلت ثورة كراغلة الساحل والمنشية ، وكما فشل من بعـدهم غومة وعصيان آغا الأدغم ، وكما فشل أهل برقة في ثوراتهم المتعددة على الحكام ؛ والسبب الذي لا سبب غيره هو تعدد الزعامات وتوازنها فيما بينها ، وانعدام الوحدة الاجتماعية لدى الشعب في تركيبه مما منع وحدة الزعامة نشأة وامتداد نفوذ .

ورابع هذه الأمور دور الشيلابي بيت المال فهو الذي دفع بالكراغلة إلى الثورة لما يئس من سيده فابتعد في أحلك الأوقات عنه ، وهو الذي انتهى بالبلاد إلى أن تسلم نفسها برضائها للأتراك زاهدة في استقلالها الذاتي . يوم أوحى بفكرته الخطيرة ليعيد للقول أغلية نفوذهم الذي افتقـدوه ويتخلصوا من مزاحمة الأهالي لهم فيه . والشيلابي رغم هذا وقبل هـذا أقوى شخصية وأبرزها في هذه الأحداث ، وقد كان في إمكانه لو أراد أن ينشيء في وطنه دولة رغم كثرة الصعوبات وتعدد الزعامات ، فقد رأينا كيف كان كل فريق يسعى لاستمالته إليه واكتسابه في صفه وكيف أن سيف النصر وغومة يحترمان نفوذه في قومه ويكادان لو طالب أن ينقادا له .

وخامس هذه العوامل انهيار وضع البلاد الاقتصادي بطرق ووسائل الحكم فيها التيار الأجنبي والسياسات الاستعمارية حتى انتهى في أواخر عهد يوسف باشا إلى ما رأيناه عليه تساعده إدارة سيئة تدفعها الميول الشخصية الضعيفة والنزوات الطارئة المريضة لإنسان في أواخر أيام حياته .

أمور خمسة يحتاج كل منها إلى بحث دقيق عميق لا يمكننا في هذا التذييل أن نقدمه أو نقوم به . ولكنهـا كانت عوامل وأسباباً انتهت بالبلاد إلى الحكم العثماني المباشر من جديد .

فهرس